الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique

جامعة غرداية
كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية
قسم العلوم الإسلامية

Université de Ghardaïa
Faculté des Sciences Sociales et Humaines
Département des sciences islamiques

الرقم: 37 /ق.ع.إ/ك.ع.إ.إ/ج.غ/2022

غرداية في: 2022/05/10م.

شهادة المحاضرات المطبوعة
التدريس في الليسانس

يشهد السيد رئيس قسم العلوم الإسلامية بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية بجامعة غرداية، أن ما ورد من دروس في المطبوعة المقدمة من قبل الدكتور:**محمد بولقصاع**، والموسومة بـ: **محاضرات في مادة علوم القرآن الكريم.**

أنها مطابقة لمفردات مادة: علوم القرآن، التي تدرس في السداسي الأول لطلبة السنة الأولى جذع مشترك علوم إسلامية.

سلمت هذه الشهادة للمعني بالأمر بطلب منه لاستعمالها فيما يسمح به القانون.

غرداية في......2022/05/11......

رئيس القسم:

رئيس قسم علوم الإسلامية
كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية
إمضاء: بن شيخ عباس

رئيس اللجنة العلمية للقسم:

رئيس اللجنة العلمية
لقسم العلوم الإسلامية
إمضاء: الشيهاني حمو

جامعة غرداية
اللجنة العلمية
قسم العلوم الإسلامية
كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة غرداية

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الإسلامية

Université de Ghardaïa

Faculté des Sciences Sociales et Humaines

Département des sciences islamique

رقم القيد: 34 ق.ع.إ.ا/ك.ع.ا.إ /ج.غ/2022

غرداية في: 11 /2022/05م

شهادة إدارية

يشهد السّيد رئيس قسم العلوم الإسلامية بجامعة غرداية، بأن الأستاذ: **بولقصاع محمد**، تخصص: **التفسير وعلوم القرآن. قد وضع على الخط** مطبوعته الجامعية المعنونة بـ: محاضرات في مادة علوم القرآن لفائدة طلبة السنة الأولى جذع مشترك للعلوم الإسلامية، للموسم الجامعي: 2022/2021م، وفق الرابط الآتي:

عنوان المطبوعة	السنة	التخصص	الرابط
محاضرات في مادة علوم القرآن	الأولى	جذع مشترك	https://classroom.google.com/c/NTMzMjgwMDYzMDQy/p/NTMzMjgwMDYzMjQ5/details

سُلمت هذه الشهادة للمعني بالأمر بطلب منه للإدلاء بها في حدود ما يسمح به القانون.

رئيس القسم

جامعة غرداية - قسم العلوم الإسلامية - كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

رئيس قسم علوم الإسلامية

كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية

إمضاء: بن شيخ عباس

رئيس اللجنة العلمية

جامعة غرداية - اللجنة العلمية قسم العلوم الإسلامية - كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية

رئيس اللجنة العلمية

لقسم العلوم الإسلامية

الإمضاء: الشيهاني حمو

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة غرداية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإسلامية

محاضرات في مادة
علوم القرآن الكريم

مقدمة لطلبة السنة الأولى ليسانس

إعداد الدكتور: محمد بولقصاع

الموسم الجامعي: 1443.1442هـ/ 2022.2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وأفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم على من أيَّده الله بالمعجزة الخالدة، وعلى آله وأصحابه الذين حفظوا القرآن في الصُّدور والسُّطور، ومن سار على خطاهم إلى يوم الدين...أما بعد:

فإنَّ من أعظم نعم الله علينا نعمة القرآن الكريم الذي هو الحجَّة البالغة، والبيِّنة السَّاطعة، والمعجزة الخالدة، وهو شريعة الله ودينه الذي ارتضاه لعباده، من ابتغى الهدي في غيره أضلَّه الله، ومن اعتصم به فقد هُدي إلى صراط مستقيم، وهو الكتاب الذي لا تنفد دُرَرُه، ولا تنقضي عَجَائبه، ولا ينطفئ نوره، ولا يشبع منه العلماء، ولا يُملّ من قراءته، ولا يُخلق على كثرة الردِّ؛ بل يظلُّ جديدا يزيده التكرار حلاوة، ولا يزيده مرور الزَّمن إلا معجزة، من عَلِم عِلْمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجِر...

والقرآن هو الكتاب المكنون الذي أودع الله فيه من أسرار وكنوز فأفنى العلماء أعمارهم وأوقاتهم تعليمًا وتأليفًا فكشفوا عن أسراره، واستخرجوا كنوزه، ولم يدَعوا دُرَّة من دُرَره إلاَّ وغاصوا لإخراجها، ورفوف المكتبات الإسلامية شاهدة على ذلك، فمنها المطوَّل ومنها المختصر، ومنها الميسَّر في العبارة ومنها الصَّعب، ومنها المستوعب لجلِّ علوم القرآن ومنها المقتصر على بعض المباحث منها، فجزاهم الله عنَّا وعن القرآن خير ما جازى به عباده الصَّالحين.

ولقد شرَّفني الله تعالى بتدريس مادَّة علوم القرآن الكريم لسنوات عديدة، ومع حبّي لكتاب الله تعالى والسَّعي دومًا لفهم معانيه والوقوف على بعض أسراره، ورغبتي الكبيرة في تيسير مباحث علوم القرآن للطلاَّب، فقد عزمت أن أُدْلِيَ بدلوي في هذا العلم لأضيف لَبِنة صغيرة في صرحه لإيضاح بعض أبواب علوم القرآن، وصُغْته بأسلوبٍ واضحٍ في العبارة، وترتيبٍ مُحكمٍ دقيق ليتسنَّى لطلاب الشريعة فهمه، ويساعدهم على استيعاب علومه، كما سلكت فيه منهج الاختصار، فوضعت لهم هذه المطبوعة الجامعية.

وعلوم القرآن الكريم تعدُّ بمثابة مفاتيح لفهم نصوص الوحي، وهي من علوم الآلة التي نسعى بها إلى بيان مراد الله من الآية، وحيث لا يخفى على أحدٍ أنَّ علوم القرآن الكريم بمعناها العامّ لا عَدَّ لها

ولا حصر، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة النحل: 89]، ولقد اكتفيت ببيان المقدِّمات الأساسيَّة التي ينبغي لطالب العلم الإلمام بها ليُقْدِم على تدبُّر هذا الكتاب العزيز، ويهتدي إلى معرفته وفهمه فهمًا صحيحًا، ولتحقيق ذلك فقد اشتملت المطبوعة على وِفق ما هو مقرَّر لطلاب العلوم الإسلامية للسنة الأولى جذع مشترك على المباحث الآتية:

. المحاضرة الأولى مدخل تعريفي بـ" علوم القرآن الكريم".

. المحاضرة الثانية: تنزلات القرآن وتنجيمه.

. المحاضرة الثالثة: جمع القرآن وتدوينه.

. المحاضرة الرابعة: النَّسخ في القرآن الكريم.

. المحاضرة الخامسة: أسباب النُّزول القرآني.

. المحاضرة السادسة: التَّفسير النشأة والتطور.

. المحاضرة السابعة: المكِّي والمدني.

. المحاضرة الثامنة: إعجاز القرآن.

. المحاضرة التاسعة: الأحرف السَّبعة والقراءات.

وإنِّي لأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا العمل طلبة العلم فما وجدوا فيه من صواب فمن الله ﷻ وحده، فله سبحانه النِّعمة والمِنَّة، وله الفضل والثَّناء الحسن، وإن كان فيه سهو أو خطأ، أو نسيان فمن نفسي، ومن الشَّيطان، فليتداركوا هذا النَّقص والخطأ بنصحي وبالدَّعوة لي بالخير على ظهر الغيب، فرحم الله عبدًا أهدى إليَّ عُيوبي.

وأسأله تعالى كما منَّ عليَّ بإتمام هذه المطبوعة أن يُتِمَّ النِّعمة بقَبولها وينفع بها إنَّه على ذلك قدير وبالإجابة جدير وهو حسبي ونعم الوكيل.

د. محمد بولقصاع؛ أستاذ التفسير وعلوم القرآن؛ جامعة غرداية.

غرداية في: 2021/12/06م.

المحاضرة الأولى: مدخل تعريفي بـ" علوم القرآن الكريم":

مفهوم "علوم القرآن الكريم":

لقد أودع الله في كتابه الكريم جميع أسس الخير، وقواعد النَّجاة، وأسباب النَّجاح، وأصول الرِّفعة والتَّمكين فهو الكتاب الذي تضمَّن أصول العقائد، والعبادات، والمعاملات التي لا يتأتَّى فهمها السَّليم، ولا تدرك مقاصدها النَّبيلة إلاَّ بامتلاك علوم كثيرة، والتضلُّع بمعارف عديدة عرفت بعلوم القرآن الكريم، وقد جُمِعت هذه العلوم ولم تفرد؛ لأنَّه لم يقصد إلى علم واحد يتصل بالقرآن، إنَّما أريد شمول كلُّ علم يخدم القرآن أو يستند إليه، وينتظم ذلك علم التَّفسير، وعلم القراءات، وعلم الرَّسم العثماني، وعلم إعجاز القرآن، وعلم أسباب النُّزول، وعلم النَّاسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم غريب القرآن، وعلوم الدِّين واللُّغة إلى غير ذلك [1].

وقد جعل العلماء هذه العبارة: «علوم القرآن» اسم علم، يراد به معنىً خاص كما أنَّه يدلُّ على علمٍ خاصٍ، فهو يختصُّ بأنَّه علم واحد يجمع ضوابط تلك العلوم المتَّصلة بالقرآن من ناحية كلِّية عامَّة.

إذا فعلوم القرآن باعتباره اسمًا لعلم واحد يعني: المباحث الكلِّية التي تتعلَّق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه وجمعه، وكتابته، وتفسيره، وإعجازه، ومناسباته، والمكِّي منه والمدني، وغير ذلك [2]، فصار علوم القرآن علَمًا على علم معيَّن، ينتظم مسائل مخصوصة تتصل بالقرآن الكريم.

ويُلاحظ أنَّ علوم القرآن الكريم جاءت بصيغة الجمع دون الإفراد، وهذا يدلُّ على أنَّها علوم كثيرة ومتنوِّعة تساعد على فهم القرآن الكريم وتدبُّره، ومن هنا فإنَّ كلَّ علم يخدم القرآن ويساعد على فهم مسائله وأحكامه ومفرداته يكون ضِمن علوم القرآن، وقد عدّ الإمام الزركشي علوم القرآن في كتابه البرهان 47 علمًا[3]، وأوصلها الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه الإتقان إلى 80 علمًا[4].

---

1 ـ ينظر: الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج1، ص23.

2 ـ نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، ط1، مطبعة الصباح، دمشق، 1993م، ص: 7 ـ 8.

3 ـ ينظر: الزركشي محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957م، ج1، ص9.

4 ـ ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م، ج1، ص 27.

من مسمَّيات علوم القرآن:

يُطلق على علوم القرآن مسمَّى: علوم التنزيل، أو علوم الكتاب، وقد يسمِّيه البعض بأصول التَّفسير؛ لأنَّها بمثابة مفاتيح لتفسير كلام الله ﷻ، وبدون هذه العلوم فإنَّ المتعلِّم لن يستطيع تحديد مراد الله تعالى من الآية أو الآيات.

حكم تعلُّم علوم القرآن الكريم:

وحكم تعلُّم علوم القرآن الكريم بالنِّسبة لمن سيقبل على القرآن الكريم شرحًا وتفسيرًا وتدبُّرا... يتوجَّب عليه الإلمام أوَّلا بهذه العلوم، لأنَّ تدبر القرآن الكريم واجب علينا ولا يتمُّ تحقيقه إلاَّ بالتَّمكن والتَّضلُّع في علوم القرآن، وما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب، ولذلك أطلق بعض العلماء على هذا العلم بأصول التفسير [1]؛ لأنه يتناول المباحث التي لا بدَّ للمفسِّر معرفتها إذا أراد الإقبال على تفسير القرآن الكريم.

وقد جاء الوعيد الشَّديد في الكتاب والسُّنَّة لمن كان يقبل على تفسير كتاب الله من دون علم بهذه العلوم ومن ذلك:

. قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [هود: 18].

. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: 33].

. وقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس: 39].

. وقوله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2].

---

1 ـ ينظر: مناع بن خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف، 2000م، ص: 12.

2 ـ الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حققه: بشار عواد معروف، الناشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 م، كتاب أبواب تفسير القرآن، بَابُ مَا جَاءَ فِي الَّذِي يُفَسِّرُ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ، ج5، ص49، رقم الحديث: 2950. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

فوائد دراسة علوم القرآن:

تبرز فوائد دراسة علوم القرآن الكريم فيما يأتي:

. تعتبر أفضل معين على فهم القرآن الكريم حقَّ الفهم، فكثير من الآيات القرآنية لا يمكن فهمها إلاَّ بمعرفة تلك المباحث، فمثلا لا يمكن فهم الآيات الأولى من سورة المجادلة والتحريم وعبس إلا بمعرفة سبب نزولها الصحيح.

. الوقوف على عظمة النص القرآني من خلال التضلع في علوم القرآن، فكلما كان المفسِّر عارفا بعلوم القرآن كلما كان تفسيره يتَّسم بالغزارة والعمق.

. التعرف على مدى ما بذله العلماء من جهود في خدمة تفسير كلام الله.

. الاعتناء بعلوم القرآن يمكِّن الدَّارس من ردِّ شبه الأعداء ودحضها، وإظهار زيفها.

. التَّمكن في مباحث علوم القرآن يعدُّ أهمَّ سبب في تمييز التفاسير الصحيحة المنضبطة من غيرها.

نشأة علوم القرآن:

ترتبط نشأة علوم القرآن منذ بدء نزول القرآن الكريم على سيِّدنا محمَّد ﷺ إذ كان يتلوه على النَّاس، ويبيِّن لهم أحكامه، ويأمر أصحابه بحفظه وكتابته... وتطوَّرت تلك النشأة مع تطور الحياة العلمية والثقافية للأمة.

فبعض علوم القرآن الكريم ظهرت منذ فجر الدَّعوة الإسلامية فهاهو النَّبي ﷺ يأمر أصحابه بكتابة القرآن بقوله:« لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ» [1]، ومثله أيضًا كان النَّبي ﷺ يعلِّم أصحابه القراءات التي نزل بها القرآن، ففي القصَّة المشهورة أنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ، قال: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقْرَأَنِيهَا، وَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حَتَّى انْصَرَفَ، ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ، فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا، فَقَالَ لِي: «أَرْسِلْهُ»، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اقْرَأْ»، فَقَرَأَ، قَالَ: «هَكَذَا

[1] ـ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، كتاب الزهد والرقائق، بَابُ التَّثَبُّتِ فِي الْحَدِيثِ وَحُكْمِ كِتَابَةِ الْعِلْمِ، ج4، ص2298، رقم الحديث: 3004.

أُنْزِلَتْ»، ثُمَّ قَالَ لِي: «اقْرَأْ»، فَقَرَأْتُ، فَقَالَ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ»[1].

وقد كان النَّبي ﷺ وأصحابه ﷺ يعلمون متى نزلت الآية الفلانية، وأين نزلت فهذا له علاقة بعلم المكي والمدني، كما كان النَّبي ﷺ عندما يُسْأل عن سؤال فيجيب بآية أو أكثر، وتقع حادثة كحادثة الإفك، أو غزوة كغزوة بدر فتنزل بعدها آيات وهذا ما يعرف بسبب النزول، حتَّى أنَّ ابن مسعود ﷺ كان يقول: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا فِي كِتَابِ اللهِ سُورَةٌ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَا فِيهِ آيَةٌ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَا أُنْزِلَتْ»[2].

موضوع علوم القرآن:

هي مسائلها المتعلِّقة بالقرآن الكريم من أيِّ ناحية من النَّواحي المذكورة في التعريف، كلُّ علم فيما يخصُّ مسائله.

. فعلم التفسير: موضوعه: القرآن الكريم من حيث شرح آياته، وبيان معناها.

. وعلم القراءات: موضوعه: القرآن الكريم من ناحية لفظه وأدائه.

وهكذا سائر علوم القرآن الباقية موضوعها كلُّها «القرآن الكريم» ولكن بالحيثيات المختلفة التي تتعلَّق بكلِّ فنٍّ على حدة [3].

التأليف في علوم القرآن الكريم:

ولأهمِّية هذا العلم وارتباطه الوثيق بكتاب الله ﷻ فقد كثر التَّأليف فيه قديما وحديثا، وقد جاءت طبيعة التأليف في هذا العلم على ثلاثة أنماط وهي كالآتي:

1. . النَّمط الأوَّل: أنَّ بعض المفسِّرين يذكرون مباحث هامَّة في علوم القرآن في مقدِّمات تفاسيرهم، ومن هؤلاء:

أ- الإمام الطبري في مقدِّمة تفسيره المسمَّى: جامع البيان في تأويل آي القرآن.

ب- الإمام القرطبي في مقدِّمة تفسيره المسمَّى: الجامع لأحكام القرآن.

---

[1] ـ البخاري محمد بن اسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، حققه: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار: طوق النجاة، 1422هـ، كتاب الخصومات، بَابُ كَلاَمِ الخُصُومِ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ، ج3، ص122، رقم الحديث: 2419.

[2] ـ الطبراني سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ط2، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار ابن تيمية، القاهرة، ج9، ص73، رقم الحديث: 8432.

[3] ـ ينظر: عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، دار البيان العربي، القاهرة، ج1، ص55.

ت- القاسمي محمد جمال الدين في مقدِّمة تفسيره المسمَّى: محاسن التَّأويل.

ث- الطاهر ابن عاشور في مقدِّمة تفسيره المسمَّى اختصارا: التَّحرير والتَّنوير.

2. . النَّمط الثَّاني: كتب دوَّنت كلَّ علم على شكل مستقلٍّ، ومن جملتها:

أ- أسباب النُّزول لعليُّ بن المديني شيخ البخاري المتوفى سنة 234 هـ.

ب- النَّاسخ والمنسوخ، والقراءات لأبي عُبَيْد القاسم بن سَلَام المتوفى سنة 224 هـ.

ت- مُشكل القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة 276 هـ.

ث- غريب القرآن لأبي بكر السَّجِسْتاني المتوفى سنة 330 هـ.

ج- إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني المتوفى سنة 403 هـ.

ح- ومن المتأخِّرين: إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرَّافعي.

خ- "التَّصوير الفنِّي في القرآن" و"مشاهد القيامة في القرآن" للشَّهيد سيِّد قطب.

3. . النَّمط الثَّالث: التَّصانيف التي تجمع علوم القرآن المختلفة في مؤلَّف واحد، ومن بينها:

أوَّلا: من المؤلَّفات القديمة:

أ- البرهان في علوم القرآن لعلي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي المتوفى سنة: 430هـ [1].

ب- فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة 597هـ.

ت- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة 794هـ.

ث- الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين عبد الرحمن السُّيوطي المتوفى سنة 911هـ، وقد بناه على كتاب البرهان، وأضاف إليه فوائد وبحوثا.

ثانيا: من المؤلَّفات المعاصرة ما يأتي:

أ- مناهل العرفان في علوم القرآن للعلّامة الكبير محمد عبد العظيم الزَّرقاني [2].

ب- مباحث في علوم القرآن للأستاذ الدكتور صُبْحي الصَّالح.

ت- إتقان البرهان في علوم القرآن لفضل حسن عبَّاس.

ث- مباحث في علوم القرآن لمنَّاع بن خليل القطَّان.

---

1 ـ يرى بعض الباحثين أنَّ أوَّل ظهور لمصطلح علوم القرآن كمركب إضافي ظهر على يد الإمام الحوفي في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس [ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ج1، ص39. وينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص10].

2 ـ يعد هذا الكتاب من أفضل الكتب وأفيدها على الإطلاق.

ج- إتقان البرهان في علوم القرآن، لفضل حسن عباس.

ح- الواضح في علوم القرآن، لمصطفى ديب البغا.

خ- مباحث في علوم القرآن، لمساعد الطيار.

النشاط التقويمي:

1. متى كان أول ظهور لمصطلح "علوم القرآن"؟ وما هي مرادفات هذا المصطلح غير التي ذكرت في المحاضرة؟
2. ما العوامل التي أدَّت إلى تدوين مباحث علوم القرآن؟ واذكر أوَّل مبحث دوِّن في هذا العلم.
3. لخِّص مقدمة كتاب "مناهل العرفان" للزرقاني.

* * *

المحاضرة الثانية: تنزلات القرآن وتنجيمه.

كثير تلك الآيات القرآنية التي تبيِّن فيها نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣].

فمعنى النزول لغة: هو الحُلول تقول نَزَلَ يَنْزِل نُزُولاً ومَنْزَلاً وأَنْزَلَهُ غيره واسْتَنْزَلَهُ بمعنى ونَزَّلَهُ تَنْزِيلاً، والتَّنْزِيلُ أيضا الترتيب، والتَّنَزُّلُ النُزُول في مُهلة [1].

اصطلاحا: المراد بنزول القرآن: وصوله إلى النَّبي ﷺ بألفاظه وحروفه الدَّالة عليه، فيكون معنى إنزال القرآن على النَّبي ﷺ إيصاله إليه وإعلامه به.

تنجيم القرآن الكريم:

التنجيم معناه التفريق، تقول نجَّم المال تنجيما إذا أدَّاه نجوما أي: متفرِّقا، والمراد بتنجيم القرآن أي نزوله مفرَّقا على قلب النَّبي ﷺ من بِعثته إلى وفاته، والتي استمرَّت ثلاثا وعشرين عاما، ثلاثة عشر عاما بمكة، وعشرٌ بالمدينة، لما رواه الإمام البخاري عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكُثَ بِمَكَّةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالهِجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ» [2].

---

1 - الرازي محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، 1995م، ص 688، مادة: نزلَ.

2 - البخاري محمد بن اسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، حققه: محمد زهير بن ناصر الناصر،ط1، دار: طوق النجاة، 1422هـ، كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج5، ص57، رقم الحديث: 3902.

مقدار النزول في كل نجم:

كانت تنزل على النبي ﷺ آيات من القرآن على حسب الحاجة، فأحيانا تنزل عليه جزء من الآية كقوله تعالى: ﴿ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ [النساء: ٩٥]، وأحينا تنزل عليه آيتان أو ثلاث أو خمس أو عشر كما في حادثة الإفك فقد نزل في شأنها عشر آيات دفعة واحدة، وأحيانا تنزل سورة كاملة كسورة الفاتحة والمرسلات وغيرهما.

عدد تنزُّلات القرآن:

وردت آيات في القرآن الكريم تصف لنا القرآن الكريم من حيث نزوله، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾ [القدر: ١]، فهذه الآية تدلُّ على أن القرآن نزل جملة واحدة، بينما توجد آيات تنصُّ على أن القرآن نزل مفرقا منها قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، فكيف نجمع بين هذه الآيات القرآنية؟ وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن عدد تنزُّلات القرآن.

فالقرآن الكريم قبل أن ينزل أصلاً كان مُثْبَتًا في اللَّوح المحفوظ، وهذا ما أفادته الآيتان الكريمتان ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢ ﴾ [البروج: 21 – 22]، ولذلك لا تعدُّ مرحلة تثبيت القرآن من عند الله إلى اللَّوح المحفوظ تنزلا؛ لأنَّ كلَّ ما أراده الله ﷻ في الأزل أن يقع سجَّله في اللَّوح المحفوظ.

وعليه فإنَّ عدد تنزُّلات القرآن الكريم من اللَّوح المحفوظ إلى قلب النَّبي ﷺ مرَّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: من اللَّوح المحفوظ إلى السَّماء الدُّنيا جملة واحدة: وقد جاء الإخبار عن هذه المرحلة في الآيات الآتية: قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: 185]. وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: 3]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾ [القدر: 1]. ولا تعارض بين هذه الآيات الثلاث، فالقرآن نزل جملة واحدة في اللَّيلة المباركة وهي ليلة القدر من شهر رمضان.

والحكمة من نزول القرآن جملة واحدة إلى السَّماء الدُّنيا هي: "لتعظيم القرآن وتفخيم أمره بين أهل السماوات من الملائكة المكرَّمين، وكذلك لتفخيم أمر من أنزل عليه ﷺ"[1].

المرحلة الثانية: من السَّماء الدُّنيا إلى قلب النَّبي ﷺ منجَّما: فقد ابتدأ نزول القرآن الكريم مفرَّقا على قلب النَّبي ﷺ في ليلة القدر وهي اللَّيلة المباركة من شهر رمضان واستمرَّ نزوله منجَّما على

1 ـ المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مرجع سابق، ص57.

حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته ﷺ إلى قبيل وفاته، حيث أقام في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة بعد أن هاجر إليها عشر سنوات، ودليل نزوله منجَّمًا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: 33]، وقال أيضا: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: 106].

ومما يؤكِّد نزول القرآن على مرحلتين ما جاء في كثير من الأحاديث الصَّحيحة الواردة في هذا الموضوع، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ فُرِّقَ فِي السِّنِينَ، قَالَ: وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: 75 – 76]" [1]، وعنه أيضًا قَالَ: "أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً..."[2].

حِكَم نزول القرآن مفرَّقًا:

أمَّا عن حِكَم نزول القرآن منجَّما (مفرَّقا) فأهمُّها:

أ- لتيسير حِفْظِه وفَهْمِه: قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: 106]، فالقرآن الكريم كان ينزل مفرَّقا، والرَّسول الكريم ﷺ كان يقرأه على النَّاس على تمهُّل وتريُّث، وكان ذلك أدعى للأمَّة الأمِّية، وأيْسَر لها لِأَن تفهم معانيه، وتتدبَّر آياته، فكان نزوله مفرَّقًا خير عَوْن لها على حفظه في صدورها وفهم آياته، كلَّما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصَّحابة ﷺ، وتدبَّروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها.

ب- لتثبيت فؤاد النَّبي ﷺ وأتباعه: لقد انتقد الكفَّار نزول القرآن مفرَّقًا، وقالوا لماذا لم ينزل عليه جملةً واحدةً كما هو الحال بالنسبة للكتب السَّماوية الأخرى، فردَّ الله عليهم قائلاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 32].

فكان كلَّما اشتدَّ أذى قريش على النَّبي ﷺ وتكذيبهم له، إلاَّ ونزل ما يثبِّت فؤاده من قصص إخوانه الأنبياء عليهم السَّلام والذين تعرَّضوا لمواقف وأحداث مشابهة لما يتعرَّض لها النَّبي ﷺ، فكانت

---

1 ـ الحاكم النيسابوري، المستدرك، مصدر سابق، كتاب التفسير، باب تفسير سورة القدر، ج2، ص578، رقم الحديث: 3959.

2 ـ النسائي، السنن الكبرى، مصدر سابق، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة، ج10، ص205، رقم الحديث: 11308.

هذه القصص تفريجًا لقلبه، وتسلية له، حتَّى لا يأسره الحزن، ولا يتمكَّن منه اليأس ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120].

ج- للتَّحدِّي والإعجاز: لقد كان المشركون يسألون النَّبي ﷺ أسئلة تعجيزية، ويمتحنونه في نبوَّته كسؤالهم عن ذي القرنين، والرُّوح، والسَّاعة... ولكنَّ القرآن كان ينزل مفرَّقا مجيبًا عن تساؤلاتهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان: 33]، أي: ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحقِّ، وبما هو أحسن معنًى من تلك الأسئلة التي هي مَثلٌ في البطلان.

د- مسايرة الحوادث والتَّدرُّج في التَّشريع: القرآن الكريم كان يتنزَّل وفق الحوادث والوقائع، كما كان يتدرَّج في تربية الأمَّة الإسلامية تدرجًا فطريًّا لإصلاح النَّفس البشرية، واستقامة سلوكها، وبناء شخصيتها، وتكامل كَيانها، حتَّى استوت على سوقها، وآتت أكلها الطيِّب بإذن ربها لخير الإنسانية كافَّة.

فالتعاليم التي جاء بها القرآن الكريم كانت بمثابة عملية بنائية حيث كانت ركائز البناء ودعائمه قائمة على أصول الإيمان والأخلاق، ولبناته بمثابة الأحكام التشريعية، فحتى إذا استوى البناء وكَمُل لم يتزعزع بفعل تقلبات الحياة؛ لأنَّه أسِّس على قاعدة صلبة ومتينة... وما أجمل ما روته لنا أمُّنا عائشة رضي الله عنها وهي تَذْكُر لنا الحكمة من نزول القرآن مفرَّقا عندما قالت: "إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا"[1].

هـ- للدَّلالة القاطعة على أنَّ القرآن الكريم تنزيل من حكيمٍ حميدٍ: إنَّ هذا القرآن الذي نزل مُنَجَّمًا على رسول الله ﷺ في أكثر من عشرين عامًا تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سوره فيجده محكم النَّسج، دقيق السَّبك، مترابط المعاني، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسُّور، كأنَّه عِقْدٌ فريدٌ نظمت حبَّاته بما لم يُعهد له مثيل في كلام البشر، أو كأنه بناء محكم التَّرابط تامَّ التَّكوين ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1].

1 - البخاري صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ج6، ص185، رقم الحديث: 4993.

فلو كان هذا القرآن من كلام البَشر قيل في مناسبات متعدِّدة، ووقائع متفرِّقة، وأحداث متنوِّعة، لوقع فيه التَّفكك والانفصام، واستعصى أن يكون بينه التَّوافق والانسجام:﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82].

أوَّل ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم:

اهتمَّ العلماء بهذه المسألة أثناء حديثهم عن نزول القرآن، واختلفت آراؤهم فيها اختلافًا كثيرًا، ومردُّه التَّعارض الظاهري للرِّوايات المتحدِّثة في هذا الموضوع، فقد ورد منها أنَّ أوَّل ما نزل هو مطلع سورة العلق، وقيل سورة صدر سورة المدَّثِّر، وقيل سورة الفاتحة... كما اختلفوا أيضًا في آخر ما نزل من القرآن.

ولحسم القضية فإنَّه يمكننا معالجة هذا الإشكال بعد جمع الرِّوايات المتعلِّقة في الموضوع الواحد، بأن نفرِّق بين أوَّل ما نزل أو آخر ما نزل على الإطلاق، ثم معرفة أوَّل أو آخر ما نزل في موضوع معيَّن، وكذا معرفة أوَّل أو آخر ما نزل سورة كاملة على الإطلاق، وبهذا يزال الإشكال، وبناء على هذا فإنَّ:

. أوَّل ما نزل على الإطلاق هو صدر سورة العلق، كما صرَّح به حديث عائشة ﵂ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: " فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: 1]، – حَتَّى بَلَغَ – ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: 5]... [1].

. أمَّا أوَّل ما نزل في موضوع الدَّعوة فهو ما جاء في صدر سورة المدَّثِّر.

. وأوَّل ما نزل في موضوع الجهاد قوله تعالى:﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: 39].

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تعبير الرؤيا، بَابُ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، ج، ص29، رقم الحديث: 6982.

. وأوَّل ما نزل سورة كاملة هي سورة الفاتحة.

. وآخر ما نزل على الإطلاق هو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]، وقد ورد أنَّه ﷺ مكث بعدها تسع ليال وانتقل إلى الرَّفيق الأعلى.

. وآخر سورة نزلت كاملة هي سورة النَّصر.

. وأمَّا آخر ما نزل في موضوع معيَّن فيرجع على حسب ذلك الموضوع، فآخر ما نزل في موضوع المواريث آية الكلالة الواقعة في آخر سورة النِّساء، وآخر ما نزل يذكر النِّساء قوله تعالى:﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ..﴾ [آل عمران: 195].

ولعلَّ الحكمة من معرفة أوَّل أو آخر ما نزل هي معرفة تاريخ التَّشريع الإسلامي وتدرُّجه، والتَّوصُّل إلى حكمة القرآن العظيم في تربية النَّاس وأخذهم بالرِّفق، والتَّحرُّز عن الطَّفرة في تنقِيَتهم، وتخليصهم من أوحال الجاهلية، ونقلهم إلى الفضائل الإسلامية [1].

النشاط التقويمي:

1. . اذكر آراء العلماء في الفرق بين الصيغتين "الإنزال" و "التنزيل"، أي بين: أنزل، ونزَّل.
2. . قارن بين حديثي ابن عباس وعائشة ﷺ في نزول القرآن الكريم، واذكر الحكم المستفادة منهما.
3. . كثيرا ما كان ينزل القرآن الكريم جوابا لسؤال أو تعقيب على حادثة؛ اذكر مثالين لكل نوع.

* * *

المحاضرة الثالثة: جمع القرآن وتدوينه

قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]

تكفل الله ﷻ بحفظ الله القرآن الكريم، وهيَّأ لذلك الوسائل الكفيلة بحفظه وصونه، وقيَّض له رجالا يحفظونه ويعتنون به أتمَّ العناية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد مرَّ المصحف الشَّريف بمراحل تاريخية مهمَّة جدير بطالب العلم أن يقف عندها؛ لأنَّ المصحف المكتوب الذي بأيدينا المفتتح بسورة الفاتحة المختتم بسورة النَّاس، المرتَّبة آياته وسوره، المجمع بين جِلدتين، زيادة على ذلك كونه منقَّطًا ومشكَّلا، ويحتوي على رؤوس الآي وعلامات السَّجدات

[1] ـ ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص ص: 92 ـ 106، وينظر: عتر نور الدين، علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 35 ـ 38.

والوقف... كل هذا وغيره لم يكن أصلاً بهذا الشَّكل زمن النَّبي ﷺ، وإنما مرَّ بمراحل وأطوار حتَّى استقرَّ على ما هو عليه الآن، وهذا ما يعرف بتأريخ القرآن.

ومن جانب آخر فإنَّنا نعتقد جازمين أنَّ القرآن الكريم قد تكفَّل الله بحفظه ورعايته وجاء ما يدلُّ على ذلك بمؤكِّدات كثيرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]، وبالمقابل نجد أنَّ الله أوْكَل حفظ الكتب السَّماوية قبل القرآن إلى أهلها، فقد قال تعالى في شأن التَّوراة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: 44].

كما أنَّه لا يوجد كتاب في الوجود لاقى من العناية والرِّعاية البشريَّة ما لَقِيَه القرآن الكريم، فقد تنافس النَّاس في حفظه، وفهمه، وتبليغه، وتفسيره، وطَبْعه، وبذل الأموال الوقفية لخدمته... كلُّ هذا وغيره أسبابٌ هيَّأها الله تعالى لحفظ كتابه على مرِّ العصور، وهي على قسمين: حفظ في الصُّدور، وحفظ في السُّطور.

معنى جمع القرآن الكريم:

الجمع في اللغة يقصد به الاستقصاء والإحاطة بالشيء، وهو يضمُّ معنيين هما:

أ. الحفظ: كقول عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: "جَمَعْتُ الْقُرْآنَ، فَقَرَأْتُ بِهِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ"[1]، فالجمع في الحديث بمعنى الحفظ.

ب. الكتابة: كقول أبي بكر لزيد بن ثابت ﷺ: «يا زيد بن ثابت، إنك غلام شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه»[2]، فالجمع في الحديث بمعنى الكتابة.

وفيما يأتي تفصيل هذين الجَمْعَين للقرآن الكريم.

أولا: جمع القرآن الكريم بمعنى حفظه في الصُّدور.

منذ الوهلة الأولى التي نزل فيها القرآن الكريم والنَّبي ﷺ كان يحرص على حفظه فكان يعجِّل بالقرآن، ويحرِّك به لسانه والوحي لم ينقطع بعد، فأنزل الله ﷻ عليه قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦﴾

---

[1] ـ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، حققه: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط1، مؤسسة الرسالة، 2001م، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، ج11، ص67، رقم الحديث: 6516.

[2] ـ المصدر ذاته، مسند أبي بكر، ج1، ص224، رقم الحديث: 57.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾ [القيامة: 16 – 19]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: 114]، فكان ﷺ بعد هذا إذا انصرف عنه الوحي وجد القرآن مجموعًا في صدره كما وعده الله ﷻ.

وقد حفظ الرَّسول ﷺ القرآن كلَّه، وكان يعرضه على جبريل عليه السلام في كلِّ عام مرَّة في شهر رمضان، وفي السَّنَة التي توفِّي فيها ﷺ عرضه مرَّتين، كما في الحديث: «كَانَ يَعْرِضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي العَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ»[1]، كما كان ﷺ يقوم بالقرآن ويتلوه آناء الليل وأطراف النَّهار حتى كادت أن تتشقَّق قدماه.

أمَّا من جهة الصَّحابة رضي الله عنهم فقد كان النَّبي ﷺ يحفِّظهم القرآن ويحثُّهم عليه، وقد تواترت الأخبار الدَّالة على مدى عناية الصَّحابة رضي الله عنهم بحفظ القرآن الكريم، والتَّفنُّن في تلاوته [2]، حتَّى أنَّه قُتل في بئر معونة لوحدها زمن النَّبي ﷺ سبعون من القرَّاء.

أما عن بعض الرِّوايات التي ذكرت أنَّه لم يحفظ القرآن من الصَّحابة إلاَّ العدد القليل كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه قال: "مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَجْمَعِ القُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ: أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ "[3]، وغيرها من الأحاديث، فيمكن أن يُجاب عنها كالآتي:

. أنَّه لا يراد بهذه الأحاديث الحصر؛ وإنَّما يراد به ضرب المثل ويشهد لهذا أنَّ أنسًا نفسه ذكر في رواية أخرى صحابيًّا آخر ممَّن جمع القرآن وهو "أُبَيُّ بن كعب" فلو كان المراد الحصر لاتَّفقت الأسماء في الحديثين.

. أنَّ المراد بالجمع الكتابة لا الحفظ.

. أنَّ المراد بالجمع حفظه بوجوه القراءات كلِّها.

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، بَابُ كَانَ جِبْرِيلُ يَعْرِضُ القُرْآنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ج6، ص186، رقم الحديث: 4998.

[2] ـ مثاله: حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: «نَعَمْ» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا} [النساء: 41]، قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ» فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. [البخاري، رقم الحديث: 5050]، وعَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» [البخاري، رقم الحديث: 5048].

[3] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القراء، بَابُ القُرَّاءِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ج6، ص187، رقم الحديث: 5004.

. أنَّ المراد بالجمع تلقِّيه كلِّه من فم رسول الله ﷺ.

. أنَّ المراد بهؤلاء أنَّهم عَرَضوا قراءتهم على النَّبي ﷺ (1).

إذن فنحن على يقين بأنَّ الجمَّ الغفير من الصَّحابة ﷺ يحفظون القرآن الكريم، فلا عجب من ذلك لتوفُّر الدَّواعي الكثيرة منها:

أ- أنَّ القرآن الكريم نزل بلسانهم وهم أهل فصاحة وبيان والقرآن كذلك.

ب- أنَّهم عايشوا الأحداث والوقائع التي كان يعقِّب عليها القرآن، فكان ذلك أدعى للحفظ وأرْسَخ.

ج- أنَّهم كانوا يُعوِّلون على قوَّة حافظتهم لندرة وسائل الكتابة لديهم.

د- امتثالهم للنُّصوص الكثيرة الواردة في الحثِّ على حفظ القرآن، والتَّرهيب من نسيانه وهَجْره.

وانتشر الصَّحابة في الأمصار يعلِّمون أتباعهم القرآن الكريم ويحفِّظونهم، ويفسِّرون لهم معانيه، ويبيِّنون لهم أحكامه، وقد أقبل التَّابعون على هذه المدارس فكثر حفَّاظ القرآن الكريم، ولم يقتصروا على تلاوته؛ بل حفظوا أوجُه قراءته واشتهر عدد كبير من الحفَّاظ بالقراءة والرواية والتَّصدِّي لها حتى انتهت إليهم رئاسة الإقراء.

وتجرَّد بعض التَّابعين للعناية بضبط القراءات وإتقانها، ووضع القواعد لها والأصول حتى صاروا أئمة يُقتدى بهم...واستمرَّ الأمر هكذا والمسلمون يُقبلون على حفظ القرآن في صدورهم إقبالا لا يخطر ببالٍ، ولا يحلُم به كتاب على وجه الأرض، فانتشرت مدارس تحفيظ القرآن الكريم، وأنشئت معاهد للقراءات وكلِّيات القرآن في العديد من الدُّول الإسلامية ولله الحمد ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: 49].

ثانيا: جمع القرآن الكريم بمعنى حفظه في السُّطور.

كتابة القرآن الكريم على المصاحف وجمعه مرَّ بأربعة مراحل رئيسة هي:

1) مرحلة الكتابة زمن النَّبي ﷺ:

اتَّخذ الرَّسول ﷺ عددًا من الصَّحابة مهمَّتهم كتابة ما كان ينزل عليه ﷺ من وحي واشتهروا بـ" "كتّاب الوحي"، وكان من بين هؤلاء الخلفاء الرَّاشدون، وزيد بن ثابت، وأبيُّ بن كعب...

---

[1] ـ ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج**1** ص**242**، وينظر: الرومي فهد، دراسات في علوم القرآن الكريم، مرجع سابق، ص71.

أمَّا عن كيفية كتابته فعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: "كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نُؤَلِّفُ القُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ"[1]، وعن عثمان بن عفان ﷺ أنَّه قال: إذا أنزل شيء على رسول الله ﷺ يَدْعُو بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ عِنْدَهُ يَقُولُ: " ضَعُوا هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا "[2]، وقد أذن النَّبي ﷺ لمطلق الصَّحابة بكتابة القرآن وتشجيعهم على ذلك في أكثر من مناسبة من ذلك قوله ﷺ: "لَا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا سِوَى الْقُرْآنِ مَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا سِوَى الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ»[3].

أمَّا عن أدوات الكتابة فقد كان الصَّحابة يكتبون على كلِّ ما تناله أيديهم من وسائل الكتابة المتاحة في ذلك الوقت كالعُسُب "وهي جريد النَّخل"، واللِّخَاف: "وهي الحجارة الرَّقيقة"، والرِّقاع: "وهي القطعة من الجلد أو الورق"، والأقتاب: "جمع قتَب وهي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه"، والأكتاف: "جمع كتف وهي عَظْم عريض للإبل والغنم"...

مميزات جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ:

تميَّزت مرحلة الجمع زمن النَّبي ﷺ بما يأتي:

أ- لم يكن القرآن الكريم في عهد الرَّسول الله ﷺ مجموعًا في مصحف واحد؛ بل كان مفرَّقًا في الرِّقاع والأكتاف واللِّخاف وغيرها، والسَّبب في عدم جمعه لأنَّ القرآن إلى أواخر حياته ﷺ لا زال يتنزَّل، كما لم تكن آيات القرآن وسُوره مرتَّبة على حسب نزوله، ثمَّ إنَّ النَّبي ﷺ لم يعلم بأجل موته..

ب- توفِّي النَّبي ﷺ وقد كُتب القرآن الكريم كلُّه، وكان مرتَّب الآيات داخل السُّور على النَّحو الذي عليه الآن..

2) مرحلة الجمع زمن أبي بكر ﷺ:

بعد وفاة النَّبي ﷺ ارتدَّت كثيرٌ من القبائل، فحاربهم أبو بكر ﷺ بجيوشه من الصَّحابة وفيهم الحفَّاظ والقرَّاء، فاستُشهد منهم الكثير، فأشار عمر ﷺ على أبي بكر بفكرة جمع القرآن في مصحف واحد، وقد نقل لنا الإمام البخاري القصَّة الكاملة لمرحلة الجمع حيث روى أنَّ زيد بن ثابت الأنصاري قال: "أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ

---

[1] ـ الترمذي، سنن الترمذي، مصدر سابق، أبواب المناقب، باب فضل الشام واليمن، ج6، ص228، رقم الحديث: 3954.

2 ـ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، مصدر سابق، مسند عثمان بن عفان ﷺ، ج1، ص460، رقم الحديث: 399.

3 ـ الحاكم، المستدرك، مصدر سابق، كتاب العلم، فصل في توقير العالم، ج1، ص216، رقم الحديث: 437.

القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ فِي المَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ القُرْآنَ "، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: «كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟» فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلاَ نَتَّهِمُكَ، «كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ، قُلْتُ: «كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ، وَالعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ.."[1].

ويَرجع سبب تكليف أبي بكر زيدَ بن ثابت مهمَّة الجمع إلى:

1) . أنَّه كان من حفَّاظ القرآن الكريم.

2) . أنَّه شهد العرضة الأخيرة التي عرض فيها النَّبي ﷺ القرآن على جبريل عليه السلام.

3) . أنَّه من كتَّاب الوحي للرَّسول ﷺ.

4) . مكان يتمتَّع به رضي الله عنه من رجاحة عقله، وشدَّة ورعه، وكمال خُلُقه، واستقامة دينه، ويشهد لذلك مقولة أبي بكر رضي الله عنه فيه.

وقد تلخَّص منهج زيد في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أن لا يقبل شيئًا من المكتوب حتى يشهد شاهدان على أنَّه كتب بين يدي الرَّسول ﷺ، وأن لا يقبل من صدور الرِّجال إلا ما تلقَّوْه من فم الرَّسول ﷺ فإنَّ عمر رضي الله عنه كان ينادي: "من كان تلقَّى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأتنا به" ولم يقل من حفظ شيئًا من القرآن فليأتنا به.

وظَفَر هذا الجمع باتِّفاق الصَّحابة رضي الله عنهم على صحَّته ودقَّته وأجمعوا على سلامته من الزِّيادة أو النُّقصان، وتلقَّوه بالقَبول والعناية التي يستحقُّها، ولم يكن "المصحف" يطلق على القرآن قبل جمع أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وإنَّما عُرِف هذا الاسم بعد أن أتمَّ زيد جمع القرآن، وكان أبو بكر أوَّل من جمع كتاب الله وسمَّاه المصحف [2].

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ج6، ص183، رقم الحديث 4986.

[2] ـ ينظر: فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، مصدر سابق، ص ص:78 ـ 83.

وبقيت الصُّحف عند أبي بكر، ثمَّ انتقلت إلى عمر، ثمَّ إلى حفصة بنت عمر ﷺ.

3). مرحلة النَّسخ زمن عثمان ﷺ:

اتَّسعت الدَّولة الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فكثر الدَّاخلون من العجم في الإسلام، ومع انتشار الصَّحابة في الأمصار، أخذ أهل كلِّ مِصْرٍ قراءة من وفد إليهم من قرَّاء الصَّحابة، وتمسَّكوا بها، وخطَّأوا ما سواها من القراءات المتواترة، واختلفوا في ذلك أيَّما اختلاف.

فلما كانت فتوحات "أرمينية" و"أذربيجان" من أهل العراق، كان فيمن حضرها "حذيفة بن اليمان" فرأى اختلافًا كثيرًا في وجوه القراءة، فأفزعه ذلك، فنقل الخبر إلى الخليفة عثمان، فقال حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: "يَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ اخْتِلاَفَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ: «أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي المَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ»، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ العَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي المَصَاحِفِ "، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ القُرَشِيِّينَ الثَّلاَثَةِ: «إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ» فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي المَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ القُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ، أَنْ يُحْرَقَ" (1).

واختار عثمان أربعة من الصَّحابة لنسخ المصاحف وهم: عبد الله بن الزُّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهؤلاء الثلَّاثة من قريش، ومعهم زيد بن ثابت.

وقد سأل عثمان ﷺ الصَّحابة: "مَنْ أَكْتَبُ النَّاسِ قَالُوا كَاتِبُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدَ بْنُ ثَابِتٍ، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ أَعْرَبُ؟ وَفِي رِوَايَةٍ أَفْصَحُ، قَالُوا: سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ قَالَ عُثْمَانُ فَلْيُمْلِ سَعِيدٌ وَلْيَكْتُبْ زَيْدٌ"(2).

خطوات نسخ المصحف زمن عثمان ﷺ:

اتَّفق عثمان مع الصَّحابة ﷺ أجمعين على خطوات النَّسخ فكانت كالآتي:

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ج6، ص183، رقم الحديث: 4987.

[2] ـ ابن حجر، فتح الباري، مصدر سابق، ج9، ص19.

أ- إقناع الخليفة النَّاس بعمليَّة النَّسخ فقام فيهم خطيبًا قائلاً: "أَيُّهَا النَّاسُ عَهْدُكُمْ بِنَبِيِّكُمْ مُنْذُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَنْتُمْ تَمْتَرُونَ فِي الْقُرْآنِ، وَتَقُولُونَ قِرَاءَةُ أُبَيٍّ وَقِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا تُقِيمُ قِرَاءَتُكَ فَأَعْزِمُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ شَيْءٌ لَمَّا جَاءَ بِهِ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْوَرَقَةِ وَالْأَدِيمِ فِيهِ الْقُرْآنُ، حَتَّى جَمَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثْرَةً، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَدَعَاهُمْ رَجُلًا رَجُلًا فَنَاشَدَهُمْ لَسَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَمْلَاهُ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ" (1).

ب- أرسل عثمان إلى أمِّ المؤمنين حفصة بنت عمر ﷺ أَنْ أَرْسِلِي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثمَّ نعيدها إليك، فأرسلت بها إليه، ومن المعلوم أنَّ هذه الصُّحف هي التي جمُِعت في عهد أبي بكر الصديق ﷺ على أدقِّ وجوه البحث والتَّحرِّي.

ج- دفع عثمان ذلك إلى زيد بن ثابت والقرشيِّين الثَّلاثة وأمرهم بنسخ مصاحف منها وقال عثمان للقرشيِّين: «إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ»(2).

د- رسمت (كتبت) النُّسخ بطريقة تقبل كلَّ وجوه القراءة التي قرأها النَّبي ﷺ وطريقة كتابتها هي أنَّه إذا تواتر في آية أكثر من قراءة تكتب الآية خالية من أيَّة علامة لتحتمل قراءتين أو أكثر مثل: "ملك يوم الدِّين" تحتمل مالك يوم الدين، كذلك: "فتبينوا" تحتمل فتثبتوا، وأيضًا: "ننشرها" تحتمل ننشزها.

أمَّا إذا لم يكن رسمها يحتمل القراءات فتكتب في بعض المصاحف برسم يدلُّ على قراءة، وفي مصاحف أخرى برسم يدلُّ على القراءة الأخرى مثل:

. {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ} هكذا تكتب في بعض المصاحف، وفي بعضها {وَأَوْصى}.

. {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} بواو في بعض المصاحف، وفي بعضها بحذف الواو {سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}.

---

[1] - ابن أبي داود عبد بن سليمان، المصاحف، حققه: محمد بن عبده، ط1، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، مصر، 2002م، ص100.

[2] - البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ج6، ص183، رقم الحديث: 4987.

هـ- نسخت مجموعة من المصاحف اختُلِف في عددها ولكنَّها على الأقلِّ ستَّة، أُرسلت إلى الأمصار الرَّئيسة وهي: مكَّة، الشَّام، الكوفة، البصرة، المدينة، وبقي عند الخليفة مصحف، وردَّ المصحف الأصلي إلى حفصة.

و- أرسل الخليفة مع كلِّ مصحف قارئًا أو أكثر من الصَّحابة أو من كبار التَّابعين ليكون المرجع في ضبط النَّص المكتوب؛ لأنَّ المصاحف لم تكن منقَّطة ولا مشكَّلة، فتلقَّى كلُّ مصر القراءة والضَّبط من هؤلاء المقرئين، وتخرَّج من أيديهم قرَّاء يضبطون قراءة أهل ذلك المِصر، وانتهى الخلاف بينهم في الرَّسم والضَّبط بوجود المرجعية في القراءة.

ز- أمر الخليفة بما سوى هذه المصاحف أن تحرق، كي لا يعود أحدٌ إلى الخلاف الماضي، وانقاد النَّاس لأمره.

ح- هذه المصاحف كانت مرتَّب الآيات والسُّور على الوجه المعروف الآن، وسمِّيت من حينها بالمصاحف العثمانية [1].

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان:

يتبيَّن لنا ممَّا سبق ذكره أنَّ جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفيَّة.

فالباعث لدى أبي بكر ﷺ لجمع القرآن خشية ذهابه بذهاب حملته، حين استحرَّ القتل بالقرَّاء، أمَّا الباعث لدى عثمان ﷺ كثرة الاختلاف في وجوه القراءة، حين شاهد هذا الاختلاف في الأمصار وخطَّأ بعضهم بعضًا.

وجَمْع أبي بكر للقرآن كان نقلًا لما كان مفرَّقًا في الرِّقاع والأكتاف والعسب، وجمعًا له في مصحف واحد مرتب الآيات والسور، أمَّا جُهد عثمان ﷺ للقرآن فقد كان نسخًا لمصحف أبي بكر، حتَّى يجمع المسلمين على مصحف واحد [2].

4) . مرحلة التَّحسين والتَّزيين بعد زمن عثمان:

بعد زمن عثمان بن عفان ﷺ استمرَّت الأمَّة الإسلامية في عنايتها بالقرآن؛ وخاصَّة من جانب ضبط النَّصِّ، فقد نُقِّط المصحف، ثمَّ شكِّل، ثمَّ وُضعت فيه رؤوس الآيات، وبعدها علامات

---

[1] - ينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، ص ص" 130 - 131. وينظر: فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، ص ص: 87 - 89.

[2] - ينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص133.

السَّجدات والوقف، ثمَّ حزَّب القرآن وقسَّم الحزب إلى أنصاف ثمَّ أرباع ثمَّ أثمان، وبعد ذلك طُبع المصحف بطباعة حجرية كمطبعة القاهرة سنة 1923م والتي طبعت ملايين النُّسخ، ثمَّ نسخ المصحف حاليا على أجهزة إلكترونية وأقراص مدمجة، وآخرها ظهورا هو مصحف إلكتروني مزود بقلم يقرأ القرآن وفق القراءات العشر، ويفسِّر القرآن... وهذا التَّحسين كلُّه موافق للرَّسم العثماني الذي لا يجوز العدول عنه.

النشاط التقويمي:

1. . يختلف الجمع في عهد أبي بكر مع النَّسخ في عهد عثمان بن عفان في الباعث والكيفية، اذكر أهمَّ الاختلافات بينهما في هذين الجانبين.
2. . عرِّف معنى "كتبة الوحي، واذكر أهمَّ أسمائهم، وما هي الأدوات التي استخدموها في الجمع؟

* * *

المحاضرة الرابعة: النَّسخ في القرآن الكريم.

يعتبر موضوع النَّسخ من الموضوعات التي أولاها العلماء عناية كبيرة، إذ لا نكاد نجد عِلمًا من العلوم الشرعية إلا وللنسخ فيه مدخل، فعلماء التفسير والحديث والفقه وأصوله كلهم تحدَّثوا عنه، لكن رغم كل هذا نجدُ أنَّ قضية النَّاسخ والمنسوخ لا تزال مثار جدل بين العلماء بين مثبت ونافٍ لها، وبين موسِّع ومضيِّق.

فنُفَاة النَّسخ يرون أنَّ النَّسخ قولٌ بالتَّعارض في القرآن لعدم إمكانية الجمع بينه وبين المنسوخ، وفي نفس الوقت هو إبطال لحكم الآيات المنسوخة والقرآن لا يأتيه الباطل، وغير ذلك مما ذكروه في هذا الباب من حجج وأدلَّة.

ونحن سنعرض مبحث النَّاسخ والمنسوخ من زاوية من يعتدُّ به ويُثبته، فقد ألَّف فيه كثير من العلماء منهم: أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السَّجِسْتاني، وأبو جعفر النَّحاس، ومكِّي بن أبي طالب، وابن الأنباري، وابن العربي المالكي، وابن الجوزي، وغيرهم كثير، ومن المعاصرين مصطفى زيد.

تعريف النسخ:

لغة: يطلق على معنيين اثنين هما:

. الإبطال والإزالة: كقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الحج: 52]، وكقولهم نسخت الشمس الظل إذا أزالته، ونسخ الرِّيح الأثر.

. النَّقل: كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٩﴾ [الجاثية: 29]، أي: نقل الأعمال إلى الصُّحف[1]، ومنه قولهم: نسخت الكتاب.

اصطلاحا هو: رفع الحكم الشَّرعي بدليل شرعي [2].

فمن خلال التَّعريف لا بدَّ من تحقُّق النَّسخ أمور أربعة هي:

أوَّلها: أن يكون المنسوخ حكمًا شرعيًّا، ولا يكون الحكم شرعيًّا إلاَّ إذا كان دليله قرآنا أو سنَّة، وأن يكون من الأحكام العمليَّة لا من أمور العقائد والأخبار والقصص والأخلاق.

ثانيها: أن يكون دليل رفع الحكم دليلا شرعيًّا، أي أن يكون أيضًا من القرآن والسُّنَّة.

ثالثها: أن يكون هذا الدَّليل الرَّافع متراخيًا عن دليل الحكم الأوَّل غير متَّصل به، فالنَّاسخ هو الخطاب الرَّافع المتأخِّر النُّزول، والمنسوخ هو الحكم المرفوع المتقدِّم النُّزول.

رابعها: أن يكون بين الدَّليلين (النَّاسخ والمنسوخ) تعارض حقيقي، لا يمكن الجمع بينهما بأيِّ وجه من الوجوه.

بناء على التَّعريف لا يدخل في النَّسخ:

أ- ما كان متفشِّيًا من العادات الجاهلية ثم حُرِّم كشرب الخمر، ووأد البنات، والتبني... لأنَّ وجودها في الأصل لم يكن عن طريق دليل شرعي.

ب- ما فعله عمر بن الخطاب من إيقاف سهم المؤلَّفة قلوبهم، وحدِّ السرقة، ومنع الزَّواج بالكتابيات...إذ ليس فعله خطابًا شرعيًّا؛ بل اجتهادٌ مؤقَّت.

دليل وقوع النَّسخ:

هناك أدلة عقلية وأخرى سمعية على ثبوت النسخ عند القائلين به:

---

[1] ـ ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ج2، ص 175.

[2] ـ الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ج2، ص 176، وينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص: 238.

الأدلة العقلية: أن النَّسخ لا محظور فيه عقلاً، وكل ما كان كذلك جاز عقلاً، يقول ابن قدامة: "وقد أنكر قوم النَّسخ، وهو فاسد؛ لأن النَّسخ جائز عقلاً، وقد قام دليله شرعًا، أما العقل فلا يمتنع أن يكون الشيء مصلحة في زمان دون زمان"[1].

أما السمعية: هناك كثير من الآيات الدالة على وقوع النَّسخ في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾[سورة البقرة: ١٠٦]، يقول الخازن: الصحيح الذي عليه جمهور العلماء أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات بدليل آخر يأتي بعده وهو المراد من الآية [2].

وقوله تعالى أيضا: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة النحل: ١٠١]، يقول أبو حيان الأندلسي: "والظاهر أن هذا التبديل رفع آية لفظا ومعنى، ويجوز أن يكون التبديل لحكم المعنى وإبقاء اللفظ"[3].

طرق معرفة النَّسخ:

يعرف النَّسخ بأحد الطرق الآتية:

1. . النَّقل الصَّريح عن النَّبي ﷺ أو عن صحابي، كحديث: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهُ يُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا»[4].
2. . إجماع الأمَّة على أنَّ هذا ناسخ وهذا منسوخ.
3. . معرفة المتقدِّم من المتأخِّر وذلك بالنَّظر والتأمُّل في التَّاريخ.

ولا يعتمد في النَّسخ على الاجتهاد، أو قول المفسِّرين، أو التَّعارض بين الأدلَّة ظاهرًا.

---

1 ـ ابن قدامة المقدسي عبد الله بن أحمد، روضة الناظر وجنة المناظر، ط2، مؤسسة الريّان، بيروت، 2002م، ج1، ص228.

2 . الخازن علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ، ج1، ص68.

3 ـ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، حققه: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج6، ص594.

4 ـ الحاكم، المستدرك، مصدر سابق، كتاب الجنائز، ج1، ص532، رقم الحديث: 1393.

أقسام النَّسخ:

للنَّسخ خمسة أقسام هي [1]:

1) . نسخ القرآن بالقرآن: وهذا القسم متَّفق على جوازه ووقوعه وهذا بالنسبة للقائلين بالنَّسخ، فآية الاعتداد بالحول مثلًا نُسِخَت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرٍ.

2) . نسخ القرآن بالسُّنَّة الآحادية والجمهور على عدم جوازه؛ لأنَّ القرآن متواتر يفيد اليقين، والآحادي مظنون، ولا يصحُّ رفع القطعيِّ بالمظنون.

3) . نسخ القرآن بالسُّنَّة المتواترة: أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية، لاعتبارهما وحيًا، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3 – 4]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: 44]، والنَّسخ نوع من البيان، لكن مَنَعَه الشَّافعي وأهل الظَّاهر وأحمد في الرِّواية الأخرى، لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106]، والسُّنَّة ليست خيرًا من القرآن ولا مثله.

4) . نسخ السُّنَّة بالقرآن، ويجيزه الجمهور، فالتَّوجه إلى بيت المقدس كان ثابتًا بالسُّنَّة، وليس في القرآن ما يدلُّ عليه، وقد نُسِخَ بالقرآن في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144].

5) . نسخ السُّنَّة بالسُّنَّة: وهذا جائز بشرط أن ينسخ المتواترُ المتواترَ والآحادَ، بينما الآحادُ لا ينسخ إلا الآحادَ مثل قوله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهُ يُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا»[2].

أنواع النَّسخ في القرآن:

النَّسخ الواقع في القرآن يتنوَّع إلى أنواع ثلاثة هي كالآتي:

1. نسخ الحكم والتِّلاوة (النَّصِّ) معًا: فقد أجمع عليه القائلون بالنَّسخ من المسلمين ويدلُّ على وقوعه سمعًا ما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: "كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ

---

[1] ـ ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص243 ـ 244. وينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مرجع سابق، ص ص: 159 ـ 160.

[2] ـ الحاكم، المستدرك، مصدر سابق، كتاب الجنائز، ج1، ص532، رقم الحديث: 1393.

مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ، بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ"[1].

2. نسخ الحكم وبقاء التِّلاوة (النَّص): ومعظم المنسوخ في القرآن من هذا النَّوع، ومثاله: آية تقديم الصَّدقة عند إرادة مناجاة الرَّسول ﷺ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [المجادلة: 12]، فهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة: 13]، إذن فحكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية مع أنَّ تلاوتهما باقية.

3. نسخ التِّلاوة وبقاء الحكم: ويمثَّل له بالرَّجم، وقد ورد في مسند الإمام أحمد بسنده عَنْ زِرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: «كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ؟ أَوْ كَأَيِّنْ تَعُدُّهَا؟» قَالَ: قُلْتُ لَهُ: ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ آيَةً، فَقَالَ: " قَطُّ، لَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَتُعَادِلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا: الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"، فهذه الآية لم يعد لها وجود بين دفَّتي المصحف ولا على ألسنة القرَّاء مع أنَّ حكمها باقٍ على إحكامه لم ينسخ [2].

أنواع النَّسخ من حيث التَّشديد والتَّخفيف:

لما عرفنا أنَّ النَّسخ قد يكون ببدل، وهذا البدل له ثلاث حالات هي:

1. أن يكون أشدَّ من المنسوخ: كنسخ الحبس في البيوت في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء: 15]، نسخت بالجلد في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2].

2. أن يكون أخفَّ من المنسوخ: ومثاله عدة المتوفَّى عنها زوجها فقد كانت سنة ثمَّ خفِّفت بأربعة أشهر وعشر.

---

[1] ـ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الرضاع، بَابُ التَّحْرِيمِ بِخَمْسِ رَضَعَاتٍ، ج2، ص1075، رقم الحديث: 1452.

[2] ـ ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ج2، ص209.

أن يكون مساويًا للمنسوخ: كنسخ التَّوجُّه إلى بيت المقدس بالتَّوجه إلى الكعبة في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144].

أنواع النَّسخ من حيث البدل وعدمه:

ينقسم هذا النَّوع إلى قسمين هما:

1) . النَّسخ ببدل: أيْ أن يُؤتى بحكم جديد بدل المنسوخ، ومعظم هذا النَّسخ في القرآن من هذا القسم.

2) . النَّسخ بدون بدل: فيُنْسخ الحكم ولا بدل له، كنسخ الصَّدقة بين يدي نجوى رسول الله ﷺ بدون بديلٍ لها، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [المجادلة: 12] كه تعالى نك 7

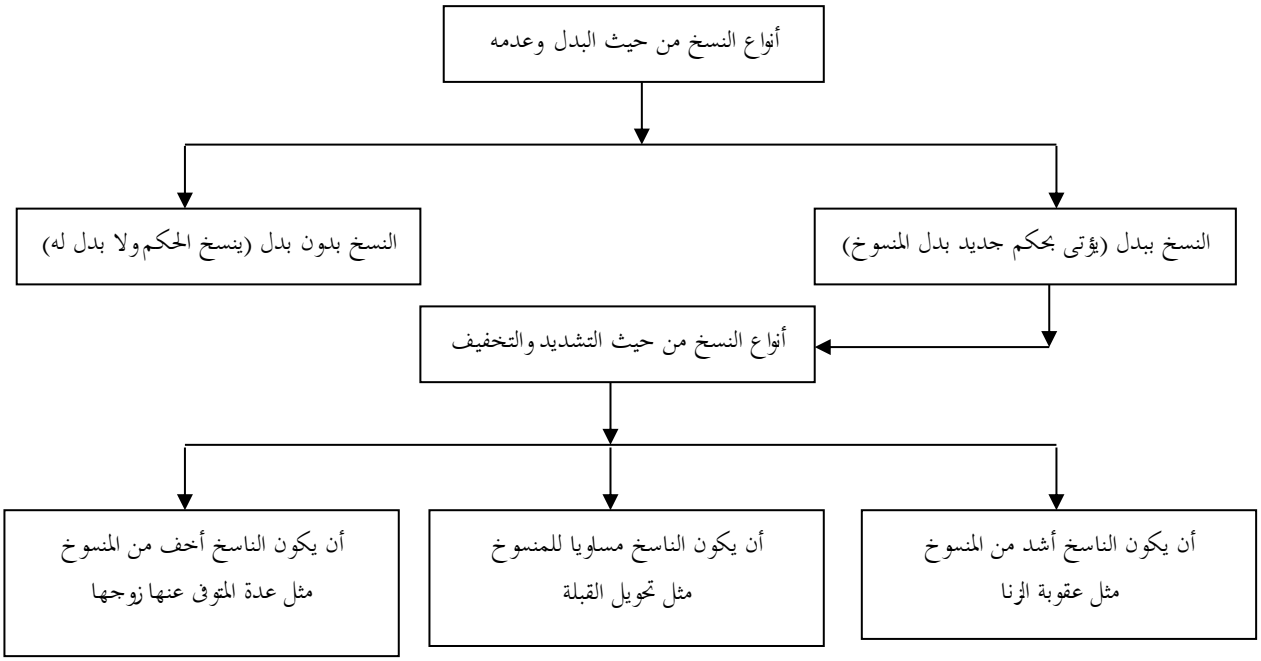

الأسباب التي جعلت من بعض العلماء يتوسَّعون من ذكر المنسوخ في القرآن:

1) . اعتبار ما شُرِعَ لسبب ثم زال السَّبب أنَّه من قبيل المنسوخ، كالحثِّ على الصَّبر وتحمُّل أذى الكفار في بداية الدَّعوة حين الضُّعف والقلَّة، قالوا إنَّه منسوخ بآيات القتال، والحقيقة أنَّ الأوَّل – وهو وجوب الصَّبر والتَّحمل – كان ويكون في حالة الضُّعف والقلَّة كالذي يعيشه حال أكثر المسلمين اليوم، أمَّا إذا وُجِدَت الكثرة والقوَّة وجب الدِّفاع عن العقيدة بالقتال، وهو الحكم الثاني.

2) . اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة نسخًا: كتحديد عدد الزَّوجات بأربع، وتحريم التَّبني، ومثل هذا ليس نسخًا، لأنَّ وجوده في الأصل لم يكن بدليل شرعي.

3) . اعتبار التَّخصيص والبيان نسخًا: فاعتبروا قوله تعالى: ﴿ ﴾ [التوبة: 41]، أنَّها ناسخة لقوله تعالى: ﴿ ﴾ [الفتح: 17]، والصَّحيح أنَّها غير منسوخة لأنَّ ذلك من باب التَّخصيص.

. اعتبار ما ظاهره التَّعارض نسخًا: ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: 115]، أنَّها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144]، والحقيقة لا تعارض بين الآيتين، فالأصل التَّوجه إلى البيت الحرام؛ ولكن من عمِيَت عليه القبلة، أو في حال صلاة النَّافلة على الرَّاحلة في السَّفر فلا بأس من التَّوجه لغير القبلة، وقد ثبت أنَّ النَّبي ﷺ «كان يُصَلِّي السُّبْحَةَ بِاللَّيْلِ فِي السَّفَرِ عَلَى ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ»[1].

عدد الآيات المنسوخة:

بالغ كثير من العلماء في عدِّ الآيات المنسوخة، فقد روي عن الإمام محمد بن حزم أنَّ عددها 214 آية، وأوصلها الإمام أبو القاسم بن سلامة 235 آية، والإمام عبد الرحمن ابن الجوزي أوصلها إلى 274 آية، وعدَّها أبو جعفر النحَّاس 138 آية [2]، حتى أنَّ البعض منهم يرى أنَّ آية السَّيف نسخت 124 آية، والحقُّ أنَّ الذي ارتضاه كثير من المحقِّقين المُحدَثين كفضل حسن عباس، وعبد الله الغماري أنَّ الآيات المنسوخة لا تتعدَّى عدد أصابع اليد الواحدة وقد بيَّنوا ذلك بالتفصيل.

النشاط التقويمي:

1. . من خلال نصوص القرآن الكريم اذكر الحكمة من وقوع النسخ.
2. . ماذا يفيد الداعية من علم الناسخ والمنسوخ.
3. . اشرح قول الجمهور: النسخ لا يقع في العقائد والأخلاق وإنما يقع في الأحكام.

* * *

المحاضرة الخامسة: أسباب النُّزول القرآني

يعدُّ سبب النُّزول أحد أهمِّ علوم القرآن الكريم، وما ذلك إلاَّ لعلاقته المباشرة بتفسير النص القرآني، كما يُعتمد عليه في ترجيح معنى الآية إذا اختُلف في معناها، وبيان سبب النزول طريق قويٌّ في فهم معاني القرآن، يقول ابن تيمية: " مَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْآيَةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُوَرِّثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ"[3]، وقد أفضت الجهالة بسبب نزول بعض الآيات إلى تفسيرها على غير ما يراد منها كما حدث ذلك كثيرا، ومثاله ما وقع في زمن فتح القسطنطينية إذ خرج صفٌّ عظيم من الروم فحمل

---

[1] ـ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ جَوَازِ صَلَاةِ النَّافِلَةِ عَلَى الدَّابَّةِ فِي السَّفَرِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ، ج1، ص487، رقم الحديث: 700.

[2] ـ فضل حسن عباس، محاضرات في علوم القرآن، دار النفائس، الأردن، 2007م، ص210.

[3] ـ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص108.

رجل من المسلمين حتى دخل فيهم، فقال الناس: ألقى بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَتُؤَوِّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةَ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلاَمَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلاَمَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلاَحِهَا، وَتَرْكَنَا الغَزْوَ" [1].

تعريف سبب النزول:

سبب النُّزول هو الأمر أو الحادثة التي شاء الله أن تقع لينزل بعدها آية أو آيات تُعقِّب على تلك الحادثة لأجل أخذ الدُّروس والعبر منها.

إذن فسبب النُّزول هو "ما نزل قرآنٌ بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال"[2].

شرح قيود التَّعريف:

1. . ما نزل قرآن بشأنه: يعني أن تنزل آية واحد، أو أكثر، وربَّما سورة كاملة كسورة المسد لتُعلِّق على الحدث، أو تجيب على سؤال طرح على النَّبي ﷺ.
2. . وقت وقوعه: وهو قيد غي التعريف، فلا بدَّ أن يكون نزول الآيات وقْتَ وقوع الحادثة، أو توجيه السُّؤال فإنْ كانت الحادثة قبل نزول الآيات بزمن طويل خرج ذلك عن هذا الباب، وصار من باب الإخبار عن الوقائع الماضية والأمم السَّابقة، ومثال ذلك: الأحداث التي كانت قبل بعثة النبي ﷺ، أو التي ستكون بعد عهد النبوة فلا تعدُّ من أسباب النزول، كمثل ما حدثنا القرآن عن حادثة الفيل، وأصحاب الكهف، وحادثة أصحاب الأخدود، فهذه لا نسميها أسباب نزول لأنها كانت قبل عهد النبوة.
3. . حادثة: وقد تكون حادثة فردية مثل: قصَّة المجادلة وهي خولة بنت ثعلبة التي جادلت النَّبي ﷺ في أمر زوجها أوس بن الصامت فأنزل الله بعدها مباشرة آيات من صدر سورة المجادلة، وكقصَّة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم حيث عبس النَّبي ﷺ في وجهه رغم أنَّه ضرير، فأنزل بشأنه مطلع سورة عبس...،

---

1 ـ الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حققه: بشار عواد معروف، الناشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 م، أبواب تفسير القرآن، ج5، ص62، رقم الحديث: 2972.

2 ـ عماد علي عبد السميع، التيسير في أصول واتجاهات التفسير، دار الإيمان، الإسكندرية، 2006م، ص92.

وقد تكون حادثة جماعية مثل: حادثة الإفك التي هزَّت المدينة لأزيد من شهر واتُّهم فيها زوج النَّبي ﷺ عائشة ﵂ في عرضها الشَّريف، فأنزل الله بعدها آيات من سورة النور تبرِّئها، كما وتعتبر الغزوات المذكورة في القرآن بمثابة حوادث جماعية كغزوة بدر التي عقَّب الله عليها في سورة الأنفال وشيئًا من سورة آل عمران، وأحد في سورة آل عمران، وتبوك ونزول آيات فيها في سورة التوبة...

4. سؤال: فهو ما يطرح كأسئلة مباشرة موجَّهة إلى النَّبي ﷺ على سبيل الاستفسار أو التَّعجيز، فتَرِد بعبارة "يسألونك" أو "يسألك" ويَنزل القرآن بعد ذلك ليجيب عن السُّؤال المطروح بقوله: "قل"، ومثاله: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]، وقوله أيضًا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219]، وهكذا في التِّسع المواضع المتبقِّية.

أنماط التَّأليف في علم أسباب النُّزول:

ولأهمِّية هذا العلم فقد تنوَّعت تآليف العلماء فيه على ثلاثة أنواع:

النَّوع الأوَّل: أنْ تُفرد كتب مستقلَّة في أسباب النُّزول: كأسباب النُّزول لعليِّ بن المديني، والواحدي، وأسباب نزول القرآن لابن الجوزي، ولباب النُّقول في أسباب النزول للسُّيوطي وغيرهم.

النَّوع الثَّاني: أن نجد أبوابا لأسباب النُّزول ضمن كتب السُّنَّة: فمثلا في صحيح البخاري ألَّف كتابا في التفسير وكان أغلبه روايات في أسباب النُّزول، ونفس الشيء عند الإمام مسلم.

النَّوع الثَّالث: أن نجدها مدوَّنة في كتب التَّفسير وخاصَّة المأثور منها: فهذا النَّوع من التَّفسير يهتمُّ كثيرًا ببيان سبب نزول الآية إذا ورد فيها سبب.

إذن فهذه ثلاثة مصادر لكيفية التَّوصُّل إلى معرفة سبب النُّزول.

والجدير بالذكر أنَّ آيات القرآن الكريم من حيث سبب النزول وعدمه تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوَّل: قسم نزل من الله ابتداء من دون أن يرتبط بسبب من الأسباب الخاصَّة؛ وإنَّما هو مرتبط بالسَّبب العام وهو هداية النَّاس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم.

القسم الثَّاني: قسم نزل مرتبطًا بسبب من الأسباب الخاصَّة يسمِّيه العلماء "سبب نزول الآية" وآيات هذا القسم هي الأقلُّ، ولأهمِّيتها أفردها العلماء بالدِّراسة والبيان [1].

[1] - ينظر: فهد الرومي، دراسات في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص:135.

طريق معرفة سبب النزول:

يعتبر سبب النُّزول حادثة من أحداث التَّاريخ الواقعة في عهد الرَّسول ﷺ ولهذا فلا سبيل لمعرفته إلا عن طريق الرِّواية الصَّحيحة، كما لا يمكن الاجتهاد في معرفتها بحال من الأحوال؛ يقول الواحدي: "ولا يحلُّ القول في أسباب نزول الكتاب إلاَّ بالرِّواية والسَّماع ممن شاهدوا التَّنزيل ووقفوا على الأسباب"(1).

الفرق بين سبب النزول وعلم المناسبة:

أسباب النزول علم يهتم بمعرفة سبب نزول الآيات والحوادث والقضايا المتعلقة بها بغرض تفسيرها وتسهيل شرحها ومعرفة الحكمة منها وهو أحد فروع علم تفسير القرآن؛ بينما علم المناسبات فهو علم يعرف منه علل ترتيب أجزاء القران وربطها ببعضها ومعرفة سر البلاغة والبيان فيها ومعرف المقصود من جميع جملها.

ومن هنا يكمن الفرق فنقول أنَّ لكل آية من القرآن إلاَّ ولها مناسبة بينما أسباب النزول لا يشمل كل الآيات وإنما بعض الآيات القرآنية.

صيغة سبب النُّزول:

لأسباب النُّزول صيغتان يعتمد عليهما في بيان إن كانت الرِّواية سببا للنزول أم لا، وهما:

. النَّص الصَّريح: تُعتمد الرِّواية الصَّحيحة وتكون سببًا لنزول الآية أو أكثر إذا كان نصُّها صريحًا بأن يقول الرَّاوي: "سبب نزول هذه الآية كذا"، أو إذا أتى بفاء تعقيبية بعد ذكره حادثة أو سؤال، كما إذا قال: "حدث كذا" أو "سُئِلَ رسول الله ﷺ عن كذا" فنزلت الآية، فهاتان صيغتان صريحتان في السَّببية، ومثاله: ما رواه الإمام البخاري بسنده عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ، عَنِ الصَّفَا، وَالمَرْوَةِ فَقَالَ: «كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلاَمُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: 158]"(2).

---

1 ـ الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، 1388هـ، ص: 5.

2 ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: إن الصفا والمروة من شعائر الله...، ج6، ص23، رقم الحديث: 4496.

. النَّص المحتمل: تكون الصِّيغة محتملة للسَّببية إذا قال الرَّاوي: "نزلت هذه الآية في كذا" فذلك يراد به تارة سبب النُّزول، ويراد به تارة أنَّه داخل في معنى الآية، وكذلك إذا قال: "أحسب هذه الآية نزلت في كذا" أو "ما أحسب هذه الآية نزلت إلاَّ في كذا" فإنَّ الرَّاوي بهذه الصِّيغة لا يقطع بالسَّبب – فهاتان صيغتان تحتملان السَّببية وغيرها كذلك [1]، وفي هذا الشَّأن يقول الزركشي: " قَدْ عُرِفَ مِنْ عَادَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كَذَا فَإِنَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَتَضَمَّنُ هَذَا الْحُكْمَ لَا أَنَّ هَذَا كان السَّبب في نزولها" [2]، ومثاله: ما رواه الإمام البخاري بسنده عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فِي شَرِيجٍ مِنَ الحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الماءَ إِلَى جَارِكَ»، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ الماءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ الماءَ إِلَى جَارِكَ»، وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الأَنْصَارِيُّ، كَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ، قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسِبُ هَذِهِ الآيَاتِ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65][3].

فوائد معرفة سبب النُّزول:

لمعرفة سبب النُّزول فوائد كثيرة من أهمِّها:

أ- تجلية حكمة التشريع، فمعرفة السبب يجلِّي الحكمة من نزول الآية وهذا مما يزيد في النفوس ثباتا وطمأنينة، لأنَّ حكمة التَّشريع قائمة أساسا على رعاية مصلحة الأمَّة وذلك بدفع الضرر عنها وجلب الخير لها والرَّحمة بها، ومثال ذلك حادثة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها حين جاءت إلى الرَّسول ﷺ تشتكي زوجها وهي تقول: يا رسول الله أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سنِّي، وانقطع ولدي، ظاهر منِّي، اللَّهم إنِّي أشكوه إليك. فنزل قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} وزوجها هو: أوس بن الصامت، فشرع الله تعالى كفَّارة الظِّهار رحمة بها وبأمثالها، وصيانة للأُسَر من التَّفكُّك، وحماية للأبناء من التَّشرُّد.

---

[1] ـ ينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص85.

[2] ـ الزكشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص ص: 31 ـ 32.

[3] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: فلا وربك لا يؤمنون..، ج6، ص46، رقم الحديث: 4585.

ب- معرفة سبب النزول يعين على فهم مراد الآية، كما يدفع اللُّبس والإشكال عن معناها، فلا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على سبب نزولها، فالعلم بالسَّبب يورث العلم بالمسبَّب.

ج- تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن كلِّ من يسمع الآية، وذلك إذا عُرف سبب نزولها؛ لأنَّ ربط الأسباب بالمسبَّبات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كلُّ ذلك من دواعي ثبوت المعلومات في الذِّهن ورسوخها، كما يساهم في استدعاء الآية، وتذكُّر معناها [1].

د- يعيينا على معرفة بعض أحداث السيرة النبوية، فكثيرا ما كان ينزل القرآن إثر حوادث ووقائع، كما يعيننا على معرفة المكي والمدني، فسبب النزول يبين الحدث الذي نزلت لأجله السورة أو الآيات، وبناء على تحديد الحدث نعلم زمنه، وهذا ما يسهل علينا تحديد مكية الآية أو السورة من مدنيتها[2].

كيفيَّة التَّوفيق بين الرِّوايات المتعدِّدة في أسباب النُّزول:

تعدُّد الرِّوايات في سبب نزول آية واحدة؛ له ثلاث صور وهي:

الصُّورة الأولى: أن تكون الرِّوايات الواردة في سبب نزول الآية الواحدة كلُّها بصيَغٍ غير صريحة، كأنْ يقول كلُّ راو: «نزلت هذه الآية في كذا» أو «أحسبها نزلت في كذا»، فهذه الصُّورة لا تعارض فيها، فتكون الرِّوايات حينئذ داخلة في تفسير الآية.

الصُّورة الثَّانية: أن تكون الرِّوايات المتعدِّدة في سبب نزول آية واحدة بعضها صريح الصِّيغة في الدِّلالة على سبب النُّزول، وبعضها غير صريح، فحينئذ تكون الرِّواية الصَّريحة سببًا للنُّزول، بينما المحتملة تكون تفسيرًا للآية.

الصُّورة الثَّالثة: أن تكون جميع الرِّوايات الواردة في سبب نزول الآية الواحدة كلُّها صريحة في الدِّلالة على سبب نزول هذه الآية، وهذه الصُّورة يترتَّب عنها حالتين:

1) أن تكون هذه الرِّوايات المصرَّح بسبب نزولها أحدها صحيح دون الآخر، وفي هذه الحالة يقدَّم الصَّحيح على الضَّعيف.

---

[1] - ينظر: فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 140 - 145.

[2] - ينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مرجع سابق، ص ص: 74 - 75.

2) أن تتساوى الرِّوايات في الصِّحة وهذا نادر، وفي هذه الحالة يرجَّح أحد الرِّوايات بأحد المرجِّحات كأن يكون راويها حاضر القصَّة مثلاً، وقد يحمل التَّرجيح على أنَّ الآية قد نزلت عَقِب سَبَبَيْنِ أو أكثر على أزمان متقاربة [1].

ومثاله: ما جاء في سبب نزول آيات الملاعنة من سورة النور حيث جاءت روايتان صريحتان لكنَّهما مختلفتان في سبب نزول هذه الآيات ولا مرجِّح بينهما فعندئذ نحكم بأنَّهما جميعا سببًا لنزول الآية، ففي الرِّواية الأولى روى فيها الإمام مسلم في صحيحه بسنده عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «إِنَّا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، فَتَكَلَّمَ، جَلَدْتُمُوهُ، أَوْ قَتَلَ، قَتَلْتُمُوهُ، وَإِنْ سَكَتَ، سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، وَاللهِ لَأَسْأَلَنَّ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَتَكَلَّمَ، جَلَدْتُمُوهُ، أَوْ قَتَلَ، قَتَلْتُمُوهُ، أَوْ سَكَتَ، سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، فَقَالَ: «اللهُمَّ افْتَحْ وَجَعَلَ يَدْعُو»، فَنَزَلَتْ آيَةُ اللِّعَانِ: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ" هَذِهِ الْآيَاتُ، فَابْتُلِيَ بِهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، فَجَاءَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَلَاعَنَا فَشَهِدَ الرَّجُلُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ثُمَّ لَعَنَ الْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، فَذَهَبَتْ لِتَلْعَنَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَهْ، فَأَبَتْ، فَلَعَنَتْ، فَلَمَّا أَدْبَرَا، قَالَ» لَعَلَّهَا أَنْ تَجِيءَ بِهِ أَسْوَدَ جَعْدًا "، فَجَاءَتْ بِهِ أَسْوَدَ جَعْدًا»[2].

أمَّا الرِّواية الثَّانية فقد جاء في صحيح البخاري أنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ، قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «البَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ البَيِّنَةَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «البَيِّنَةَ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ» فَقَالَ هِلاَلٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ"، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: "إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ" [3].

---

[1] ـ ينظر: عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، دار البيان العربي، مصر، ص ص: 167 ـ 173.

[2] ـ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الطلاق، بَابُ انْقِضَاءِ عِدَّةِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، وَغَيْرِهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ، ج2، ص1133، رقم الحديث: 1495.

[3] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تفسير القرآن، بَابُ:{وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ}، ج6، ص100، رقم الحديث: 4747.

هل العبرة بعموم اللَّفظ أم بخصوص السَّبب؟

قبل الإجابة عن هذا السُّؤال لا بدَّ أن نبيِّن أنَّ القرآن الكريم كتاب هداية عامَّة لجميع النَّاس، فلا يقتصر نزوله على الذين عاصروا التَّنزيل فهو يشملهم ويشمل غيرهم، وإن كان البعض منهم ـ أعني الصَّحابة ـ كان السَّبب المباشر في نزول الآية للحِكَم التي أوردناها؛ إلاّ أنَّ المنطق السَّليم يقتضي أن لا تختزل الآية فقط على من كان سببا لنزولها، فهي تشمله بالطبع، وتشمل كل من وقع في نفس حكمه إلى أن تقوم السَّاعة.

وفي هذا يقول ابن تيمية: هذه الآية نزلت في كذا، لاسيما إن كان المذكور شخصًا؛ كقولهم: إنَّ آية الظِّهار نزلت في امرأة أوس بن الصَّامت، وإنَّ آية اللِّعان نزلت في عويمر العَجْلاني أو هلال بن أمِّية، وإنَّ آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله... ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنَّه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أنَّ حكم الآية مختصٌّ بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإنَّ هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق"[1].

ومن هنا فإنَّ الأصل في النّصّ القرآني يجب أن يكون قانونا عامّا يجري على كلّ الأشباه والنّظائر لتلك القصّة الّتي نزلت الآية لأجلها، فالنَّصُّ يحمل على عمومه والسبب يندرج تحته، ومن هنا فإنَّ منهج القرآن يبني على الوقائع الخاصَّة أحكامًا ومبادئ عامَّة.

أمَّا إذا كانت هناك دلائل وقرائن تدلُّ على خصوصيَّة السَّبب فلا يمكن حينئذ تعميمه، وهذا قليلٌ في كتاب الله ﷻ، وقد نجد ذلك فيما يتعلَّق بخصوصيات النَّبي ﷺ أو أزواجه رضوان الله عليهنَّ، مثلما رواه الإمام البخاري عن أنس قال: " لَمَّا أُهْدِيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رضي الله عنها إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَتْ مَعَهُ فِي البَيْتِ صَنَعَ طَعَامًا وَدَعَا القَوْمَ، فَقَعَدُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ، وَهُمْ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾[الأحزاب: 53]" [2]، إذن فهذه الرِّواية الصَّحيحة التي تحكي لنا سبب نزول هذه الآية

---

1 ـ ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1980م، ص15.

2 ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي...، ج6، ص119، رقم الحديث: 4792.

تختصُّ بالنَّبي ﷺ دون غيره، فانتظار الطَّعام عند الباب، والاستئناس في الحديث بعد الأكل هو محرَّم في حقِّ النَّبي ﷺ لارتباطاته ومسؤولياته، وفي حقِّ غيره مباح، وربَّما مستحبٌّ؛ لأنَّ المضيِّف يأنس من حديث ضيفه، ممَّا يقوِّي بينهما رابطة المحبَّة والأخوَّة.

النشاط التقويمي:

1. . الجهل بأسباب النزول يؤدي أحيانا إلى فهم الآيات على غير مرادها، بيِّن ذلك بالتمثيل.
2. . ما صحَّة العبارة الآتية: "معظم ما نزل ابتداء بدون سبب هو من نوع الإخبار، ومعظم ما نزل بسبب هو من نوع الأحكام".
3. . اذكر آيتين تعدَّدت فيهما روايات أسباب النزول، وكيف توفِّق بين هذه الروايات؟
4. اذكر آراء العلماء في مسألة تعدُّد نزول الآية الواحدة مع الترجيح.

* * *

المحاضرة السادسة: التَّفسير النشأة والتَّطور

يعدُّ التَّفسير من أجلِّ علوم الشَّريعة وأرْفَعِها قدرًا، وهو أشرف العلوم موضوعًا وغرضًا وحاجة إليه؛ لأنَّ موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كلِّ حكمة، كما أنَّه الكاشف لمعاني القرآن الكريم.

فمن هذا المنطلق فقد اهتمَّت الأمَّة الإسلامية عبر العصور بتفسير كلام الله ﷻ، وتنوَّعت مناهجها واتِّجاهاتها، وفي هذا البحث سنقف على تبيان أهمِّ القضايا المتعلِّقة بالتَّفسير من حيث مفهومه، ونشأته، وتطوُّره، وألوانه، واتِّجاهاته، كما سنبيِّن الشُّروط والضَّوابط التي ينبغي مراعاتها لمن يُقدم على تفسير كتاب الله ﷻ.

تعريف التفسير:

التَّفسير في اللُّغة: تفعيل من الفَسْر بمعنى الإبانة والكشْف وإظهار المعنى المعقول، يقول ابن منظور: الفَسْرُ البيان فَسَر الشَّيءَ يفسِرُه بالكَسر وتَفْسُرُه بالضَّمِّ فَسْراً، وفَسَّرَهُ أَبانه، والتَّفْسيرُ مثله، والفَسْرُ كشف المغَطّى والتَّفْسير كَشف المراد عن اللَّفظ المشْكل [1] ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: 33].

[1] ـ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص55، مادة: فسر.

التَّفسير في الاصطلاح: عرَّفه الزركشي بقوله: "التَّفسير علمٌ يُعْرف به فهم كتاب الله المنزَّل على نبيِّه محمَّد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمه"[1].

أهمُّ الشُّروط والضَّوابط التي ينبغي على المفسِّر مراعاتها في تفسيره:

ينبغي ألاَّ يتصدَّى للتَّفسير من لم يُحط بمجمل الشُّروط التي حدَّدها العلماء والتي بها يُبَيَّن المراد من كلام الله تعالى وأهمُّها:

1. . التَّجرُّد عن الهوى وعن الأفكار المسبقة: فلا بدَّ لمن يُقدم على التَّفسير أن لاَّ يَحمل في عقله مفاهيم مُسبقة، وأحكام مذهبية معتمدة؛ بل يترك القرآن هو الذي يحكم ويفنِّد ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، لأنَّ المنحرف في العقيدة والمنهج يسعى إلى ليِّ أعناق الآيات، ويتكلَّف في تفسيرها لتتناسب مع أهوائه وأفكاره المسبقة، وعليه فلا بدَّ أن يُقبل على القرآن متعلِّما لا معلِّما له.
2. . أن يبدأ أولًا بتفسير القرآن بالقرآن، فما أُجْمل منه في موضع فإنَّه قد فُصِّل في موضع آخر، وما اختُصر منه في مكان فإنَّه قد بُسط في مكان آخر.
3. . أن يطلب التَّفسير من السُّنَّة فإنَّها شارحة للقرآن موضِّحة له.
4. . أن يكون المفسِّر عالما بأصول التَّفسير: وذلك أنَّ أصول التَّفسير بمثابة مفاتيح لعلم التَّفسير، فلا بدَّ للمفسِّر أن يكون عالمِا بالقراءات، وأسباب النُّزول، وعلم المناسبات ونحوها.
5. . أن يكون عالمِا باللُّغة وعلومها: كالنَّحو والصَّرف والاشتقاق، والبلاغة بأقسامها الثلاثة "المعاني والبيان والبديع"؛ ذلكم أنَّ القرآن الكريم نزل بلسان عربيٍّ مبين، وهذه العلوم ممَّا يتوصَّل بها إلى معرفة المعنى، وخواصِّ التَّركيب، ووجوه الإعجاز فيه.
6. . العلم بأصول العلوم المتَّصلة بالقرآن، كعلم أصول الفقه، وأصول التَّفسير، وأصول التوحيد، ومعرفة أحداث السيرة....
7. . دقَّة الفهم التي تمكِّن المفسِّر من ترجيح معنى على آخر، أو استنباط معنى يتَّفق مع نصوص الشَّريعة.

[1] ـ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص13.

8. . لا بدَّ للمفسِّر أن ينظر إلى القرآن كوحدة متكاملة فلا يجزِّئ فهمه، أو يجعله عضين، فلا يفسِّر آية يَخْرج بها عن كلِّيات القرآن أو تتعارض مع غيرها.

9. .كما عليه أن يتخلَّق بأخلاق القرآن، وأن يكون سمْتُه حسنًا، ونيَّته صادقة، وأن يكون وَرِعًا تقيًّا وقَّافا عند حدود الله، جاهرًا بالحق، متحرِّيا بالصِّدق، متواضعًا أمام الحقِّ.

10. . سلامة الإيمان والاعتقاد، ليبتعد عن التحريف والتأويل الزائغ للآيات.

11. . فهم القواعد الأصولية ومقاصد الشريعة للتمكن من استنباط الأحكام الشرعية.

12. . العلم بالظروف التي صاحبت نزول القرآن الكريم ومعرفة أحداث السيرة النبوية لفهم أبعاد النص القرآني.

نشأة التَّفسير وتطوُّره:

أ- التَّفسير زمن النَّبي ﷺ: نشأ التَّفسير تِبَاعًا لنزول الوحي، فقد كان النَّبي ﷺ تنزل عليه الآية ويفسِّرها لأصحابه، والله ﷻ تكفَّل لرسوله ﷺ بحفظ القرآن وبيانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: 19]، فكان النَّبي ﷺ يفهم القرآن جملة وتفصيلًا، وهو أوَّل من فسَّره بأقواله وأفعاله، كما كان عليه تبيان أحكامه للنَّاس ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44].

ففي زمن النَّبي ﷺ لم تكن الحاجة إلى التَّفسير؛ لأنَّ النَّبي ﷺ بين ظهرانيهم يفسِّر لهم كلُّما يشْكُل عليهم زيادة على ذلك فإنَّ أغلب الذين عاصروا النَّبي ﷺ فهموا القرآن لأنَّه نزل بلُغَتهم، وتحدَّاهم به لأنَّهم كانوا أهل فصاحة وبيان، كما أنَّهم عايشوا الأحداث والوقائع التي كان يسجِّلها القرآن فكان ذلك لهم أدعى للفهم وأيسر.

ب- التَّفسير زمن الصَّحابة: بعد وفاة النَّبي ﷺ اتَّسعت الرُّقعة الإسلاميَّة، ودخل العجم في دين الله أفواجًا فاشتدَّت الحاجة إلى التَّفسير فانبرى لهذه المهمَّة عددٌ كبير من الصَّحابة منهم ابن عباس في مكَّة والذي دعا له النَّبي ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[1]، وأبيُّ بن كعب

[1] ـ محمد بن حبان بن البُستي، صحيح ابن حبان، حققه شعيب الأرناؤوط، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، كتاب إِخْبَارِهِ ﷺ عَنْ مَنَاقِبِ الصَّحَابَةِ، ج15، ص531، رقم الحديث: 7055.

في المدينة، وعبد الله بن مسعود في العراق، وغير هؤلاء من الصَّحابة، ولتفرُّغهم للتَّعليم والتَّفسير أصبح لهم تلاميذ من التَّابعين مثل: الإمام مجاهد الذي لازم ابن عباس وأخذ عنه.

وممَّا يلاحظ على التَّفسير زمن الصَّحابة أنَّه:

1). لم يكن هناك تفاوتٌ كبير في منهجيَّة التَّفسير بين هذه المدارس.

2). مصادر التَّفسير عند الصَّحابة هي: الكتاب، والسُّنَّة، واللُّغة، والاجتهاد.

3). تميَّزت مدرسة العراق ببداية التَّوسع في الرَّأي، وذلك لبعدها عن الحجاز الذي هو معقل للصَّحابة.

ج- التَّفسير زمن التَّابعين: اتَّسعت حركة التَّفسير في عصر التَّابعين تبعًا لتوسُّع الدَّولة الإسلامية، وازدادت حاجة النَّاس إلى فهم آيات القرآن الكريم، وخاصَّة بعد أن دخلت أمم في دين الله وهي تحمل ثقافات ولغات متعدِّدة، فنشأ في الأمصار الإسلامية جماعة من العلماء اشتغلوا بتفسير القرآن، معتمدين في ذلك على ما تلقَّوه من الصَّحابة.

وقد اشتهرت ثلاثة مراكز علميَّة في زمن التَّابعين وازدهر فيها التَّفسير وهي: مدرسة مكة، والمدينة، والكوفة، ففي مكَّة لوحدها أخذ عن ابن عباس جملة من كبار علماء التَّابعين منهم: مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي (ت 104 هـ)، وعطاء بن أبي رباح (ت 115 هـ)، وطاوس بن كيسان اليماني (ت 106 هـ)، وأبو الشَّعثاء جابر بن زيد البصري (ت 103 هـ)، وسعيد بن جبير الكوفي (ت 95 هـ)..[1].

وقد تميَّز التَّفسير في هذه المرحلة بما يأتي:

1). ظلَّ التَّفسير في هذه المرحلة محتفظًا بطابع التَّلقِّي والرِّواية كالتي سبقتها؛ إلاَّ أنَّ هذه المرحلة تسرَّبت فيها مرويات من أسلم من أهل الكتاب وتوسَّعوا في الأخذ بها، وهو ما يسمى بالإسرائيليات كالذي يُروى عن عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبِّه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

2). التَّباين في مدارس التَّفسير وظهور الاختلاف فيها.

3). ظهور التَّفسير بالرأي كما هو في بعض تفسيرات مجاهد.

[1] - ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج4، ص ص: 240 - 242.

د- التَّفسير في عصور التَّدوين: بدأ التَّدوين في أواخر عهد بني أميَّة، وأوائل عهد العبَّاسيِّين، وحظي الحديث بالنَّصيب الأوَّل في ذلك، وشمل تدوين الحديث أبوابًا متنوِّعة، وكان التفسير بابًا من هذه الأبواب لكونه معتمدا على الرِّواية كالذي نجده عند الإمام البخاري حيث أفرد كتابًا في صحيحه سمَّاه بكتاب التَّفسير حيث جمع فيه المرويات وأسباب نزول الآيات والسُّور، وبعد ذلك جاء التَّفسير بشكلٍ مستقلٍّ فأصبح علمًا قائمًا بنفسه منفصلًا عن الحديث، ففُسِّر القرآن حسب ترتيب المصحف، ولعلَّ من أوائل هؤلاء شيخ المفسِّرين الإمام ابن جرير الطَّبري (ت: 310هـ) في كتابه: جامع البيان عن تأويل آي القرآن.

وبعد ذلك انتقل التَّفسير إلى نوع آخر يجمع بين الرِّوايات والاجتهادات وفق أسس وقواعد محدَّدة، وهو ما يسمَّى بالتَّفسير بالمعقول أو الرأي، فصاروا يوظِّفون ملكة اجتهادهم لأجل استنباط الأحكام والدُّروس والعبر، واكتشاف أسرار القرآن من ترتيبه، وبيانه، ووجوه إعجازه المختلفة ومن هؤلاء في مجال البيان والبلاغة الإمام الزمخشري في تفسيره الكشَّاف، أما في مجال العقل والمنطق الإمام الرَّازي في تفسيره مفاتيح الغيب، وفي مجال استنباط الأحكام الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن...

ثمَّ تقدَّم التَّفسير فظهرت أنماط جديدة فيه حيث عُني بعض المفسِّرين بتلبية حاجات عصرهم، وتناولوا في تفسيرهم الكشف عما تضمَّنه القرآن الكريم من أسس الحياة الاجتماعية، ومبادئ التَّشريع، ونظريات العلوم، كتفسير الجواهر، وتفسير المنار، أو الجانب التنظيمي والحركي كتفسير الظلال.

ثمَّ تطوَّر التَّفسير إلى ما نسمِّيه حاليًا بعصر التَّخصُّص الدَّقيق، حيث ظهر ما يسمَّى بالتَّفسير الموضوعي والذي يتطرَّق لموضوع معيَّن فيتناوله الباحث من جميع جوانبه وجهاته على وفق ما جاء في القرآن الكريم [1].

ألوان التفسير ما لها وما عليها:

أوَّلا: التَّفسير بالمأثور (بالرِّواية).

التفسير بالمأثور هو: التَّفسير المنقول عن الرَّسول ﷺ، أو الصَّحابة، أو التَّابعين لبيان مراد الله تعالى من كلامه، فهو إذًا جزء من علم رواية الحديث سواء كان مرفوعًا إلى النَّبي ﷺ، أو موقوفًا على

[1] - ينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ص: 351 - 353. وينظر: المجالي، الوجيز في علوم القرآن العزيز، مصدر سابق، ص 207.

الصَّحابي، أو مقطوعًا على التَّابعي، ويشترط فيه ما يشترط في علم الحديث من ضوابط النَّقل وشروط الصِّحَّة [1].

مآخذه: يؤخذ على التَّفسير بالمأثور جملة من المآخذ لأجلها ضعفت الثِّقة به ومن أهمِّها:

أ- كثرة الوضع في التَّفسير: والوضع هو الدَّسُّ والكذب، وكان من أهمِّ أسباب نشوئه الخلاف السياسي الذي وقع عام: 41هـ، فظهر التَّعصُّب المذهبي، والكيد للإسلام، والتَّزلُّف للحكَّام، والتَّرويج للسِّلع، واختلاق القصص والأخبار... وأثّر الوضع بأن ضاع كثير من هذا التُّراث الذي خلَّفه لنا السَّلف؛ إذ أصبح محاطًا بكثير من الشُّكوك، فأفقده الثِّقة ممَّا جعل أهل العلم يردُّون كلَّ رواية تطرَّق إليها شيء من هذا القبيل.

ب- الإسرائيليات: وهي روايات من أسلم من أهل الكتاب الذين أخذوها من الثَّقافة اليهودية والنصرانية، والتي تتعارض مع ديننا الحنيف، وميدانها الرَّئيس هو القصص والعقائد.

فبعض المفسِّرين يأخذ بها استنادًا منهم لحديث النَّبي ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2].

ويسامحني هؤلاء لعدم فهمهم الحديث في سياقه الذي وُضِع له، فالحديث سيق في معرض الذَّمِّ والوعيد، فأمَّا الذَّمُّ فقد صرَّح النَّبي ﷺ بأن نحدِّث عن أفعال بني إسرائيل كما أخبر بذلك المولى ﷻ عنهم في القرآن ولا حرج لنا في ذلك عن هذا التَّحديث، فقد وصفوا بأنَّ الله فقير، ويده مغلولة، وأنهم أساؤوا للأنبياء وقتلوهم، كما حرَّفوا كتبهم واشتروا بها ثمنا قليلا...فحدِّث عن هؤلاء عن صفاتهم الذَّميمة والدنيئة ولا حرج في ذلك، وبعدها توعَّد النَّبي ﷺ من يأخذ بها وينسبها إليه بأن يَحْجز مقعده من النَّار.

إذن فالأصل أن نضرب صفحًا عن جميع هذه الرِّوايات الإسرائيليَّة؛ لأنَّ في القرآن والسُّنَّة الصَّحيحة غُنية عنها، كما أنَّهما حازا الكمال والتَّمام ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، والكفاية عن كلِّ شيء: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: 51].

---

[1] - ينظر: عبد الجواد خلف، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، مرجع سابق، ص110.

[2] - البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ج4، ص170، رقم الحديث: 3461.

والإسرائيليات تُعنى بتوضيح مبهمات القرآن من أماكن وأشخاص، كما تبحث في تفاصيل ودقائق الأمور التي سكت عنها القرآن، علاوة على ذلك كلِّه ما تنسبه من إساءات وما تحكيه من خرافات وأساطير تمسُّ من مقام الأنبياء المكرمين [1].

ومن هنا فإنَّ أثرها سلبي أدَّى بها إلى زعزعة الثِّقة بالتَّفسير بالمأثور، فلا قيمة لها في شرعنا الحنيف؛ لأنَّه لا يُبنى عليها حكم في الدِّين، ولا ينقص منه.

ج- حذف الإسناد (سلسلة الرُّواة الموصلة إلى المتن): لقد كان الصَّحابة والتَّابعون لا يروُون إلاَّ بالإسناد إلى أن جاء عصر ما بعد التَّابعين فاختصروا الأسانيد لِطُولها، وأهملوا عزو الأقوال لقائليها ولم يتحرَّوْا الصِّحَّة فاختلط الصَّحيح بالضَّعيف.

ومن أهمُّ المصنَّفات في التَّفسير بالمأثور هي:

1) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري.
2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير.
3) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن.
4) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي [2].

ثانيا: التَّفسير بالرَّأي (بالمعقول).

هو تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد بَعْد معرفة المفسّر لكلام العرب، ومعرفة الألفاظ العربية ووجوه دلالتها، ومعرفة علوم القرآن من أسباب النُّزول، والمكِّي والمدني، وعلم المناسبات...

موقف العلماء من التَّفسير بالرَّأي:

أوَّلا: موقف المانعين: واحتجوا بعدَّة أدلَّة منها:

1. . أنَّ التَّفسير بالرَّأي تقوُّلٌ على الله بغير علم، وقد حرَّمه الله في كتابه، وقرنه مع الشِّرك وذلك في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: 33].

---

[1] - ارجع إلى التفاسير بالمأثور عند تناولها مثلا لتفسير قوله تعالى: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، أو قوله تعالى: وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب. أو قوله تعالى: وكشفت عن ساقيها...

[2] - ينظر: عتر نور الدين، علوم القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ص: 74 - 77.

لكنَّ المجيزين ردُّوا بأنَّ التَّفسير المقصود في الآية هو ما كان عن هوى، أمَّا إذا كان عن علمٍ ودرايةٍ فالآية لا تشمله.

2. . نهى النَّبي ﷺ القول بالرَّأي في القرآن الكريم كقوله عليه السلام: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

وردُّوا عليهم بأنَّ الوعيد في الحديث يشمل أصحاب الرَّأي المذموم الذين لم يبنوا آراءهم على قواعد وضوابط سليمة.

3. . نسب الله عز وجل بيان القرآن للنَّبي ﷺ لا لغيره وذلك في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44].

وردَّ المجيزون بأنَّ النَّبي ﷺ لم يفسِّر لأصحابه إلاَّ ما احتاجوا إليه، وبعد وفاته ﷺ استجدَّت أمور أُحتيج فيها إلى الاجتهاد، زيادة على ذلك أنَّ فاصلة الآية تحثُّ على إعمال الفكر في القرآن.

ثانيا: موقف المجيزين: أجاز العلماء هذا النَّوع من التَّفسير بالشُّروط والضَّوابط التي سنذكرها لاحقًا بأدلَّة كثيرة منها:

1. . ما جاء في الأمر بتدبر القرآن الكريم، والتَّدبُّر قائم أساسًا على الاجتهاد، يقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: 29]، وغيرها من الآيات التي تدعو إلى تدبُّر القرآن.

2. . دعاء الرَّسول ﷺ لابن عباس بقوله: "اللَّهم فقِّهه في الدِّين وعلمِّه التَّأويل" [2]، ولو كان التَّفسير مقصورًا على النَّقل ولا يجوز الاجتهاد فيه لَمَا كان لابن عباس مزيَّة على غيره.

3. . أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم اجتهدوا ونُقل عنهم الاختلاف فيما بينهم.

4. . لو كان التَّفسير بالرَّأي غير جائز لكان الاجتهاد أيضًا غير جائز [3].

وبهذا يظهر أنَّ التَّفسير بالرَّأي المحمود جائز، والله أعلم.

---

[1] ـ النسائي، السنن الكبرى، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، بَابٌ مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ج7، ص286، رقم الحديث: 8031.

[2] ـ سبق تخريجه.

[3] ـ ينظر: فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 160 ـ 161.

ثالثا: التَّفسير الموضوعي.

التَّفسير الموضوعي يُعْنى بتتبُّع موضوع معيَّن من خلال القرآن الكريم، وقد عني المعاصرون بالتَّفسير الموضوعي، نظرا لملاءمته للواقع، وتلبيته لحاجيات العصر، وإيجاده للحلول المستجدَّة من القضايا الحديثة، وهو على ثلاثة طرق:

1. . دراسة موضوع مَّا من جميع جوانبه كما تطرَّق إليه القرآن: حيث تجمع الآيات المتعلِّقة بذلك الموضوع المراد دراسته كالمرأة في القرآن الكريم، أو اليهود في القرآن ثمَّ ترتَّب وتصنَّف على حسب الجوانب التي تعرَّض إليها القرآن، لِيَخْلُصَ الباحث في الأخير إلى دراسة كاملة حول ذلك الموضوع من زاوية القرآن، مبيِّنًا في ذلك مفهومه، وأسبابه وأنواعه ومسائله وفروعه في دراسة جامعة.
2. . النَّظر إلى السُّورة القرآنية كلِّها كوحدة موضوعية واحدة: فيبحث المفسِّر عن رابطٍ أو محورٍ تدور حوله موضوعات السُّورة رغم تنوُّعها، فمثلا الوحدة الموضوعية في سورة البقرة ترتكز على الإيمان بالغيب؛ وبالأخصِّ قضية البعث حيث نجد أنَّ جميع القصص المذكورة فيها ترتكز حول ذلك الموضوع، أمَّا السُّوَر القصيرة فلا عناء في بيان موضوعها الرَّئيسي؛ لأنَّها تتحدَّث في الأغلب عن موضوع واحد، ومن الذين اعتنوا ببيان هذا النَّوع في تفاسيرهم سيِّد قطب في ظلال القرآن.
3. . دراسة مفردة مَّا من خلال القرآن كلِّه: وهذا النَّمط أدقُّ من سابِقَيْه؛ إذ يتعلَّق بالكلمة وحدها من حيث ورودها في القرآن، ومعرفة السِّياق الذي وردت فيه، والسَّبب في اختيار تلك المفردة في ذلك الموضع بالضَّبط دون غيرها من المفردات وهكذا...

ولا شكَّ أنَّ الدِّراسات الموضوعية تخدم المسلم خدمة مباشرة في معرفة الدراسة القرآنية حول موضوع ما، فتُيسِّر له الإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه [1].

النشاط التقويمي:

1. . عرف التأويل لغة واصطلاحا، واذكر الفرق بينه وبين التفسير.
2. . قارن بين خصائص التفسير في عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة وعصر التابعين.
3. . ما علاقة التفسير الموضوعي بالتفسير التحليلي؟، وهل يستقلان عن بعضهما أم هما مُكمِّلان لبعضهما؟

[1] - ينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مرجع سابق، ص215.

* * *

المحاضرة السابعة: المكِّي والمدني

إنَّ من أشرف علوم القرآن علمُ نزوله، وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيَّعا، وما نزل مفردا، والآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكيات في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما نزل مجملا، وما نزل مفسرا، وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي؛ فهذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميِّز بينها لم يحل له أن يتكلَّم في كتاب الله تعالى [1].

ومن هنا فقد اعتنى العلماء بمعرفة مكان نزول الآيات والسُّور، وزمن نزولها لما في معرفة ذلك من فوائدٍ عديدةٍ لفهم النُّصوص القرآنية، واستيفاء معانيها، واستقصاء مدلولاتها حتى كان يقول عبد الله بن مسعود: «وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلاَ أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»[2].

1). تعريف المكي والمدني:

تعددت تعريفات علماء هذا الفنِّ في كيفية التَّمييز بين القرآن المكِّي والقرآن المدني، على ثلاثة آراءٍ نوضِّحها فيما يأتي:

الرأي الأوَّل: أنَّ المكِّي ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكَّة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله خارج المدينة.

هذا التَّعريف رُوعي فيه زمان النُّزول، وهو أشهر الاصطلاحات في تعريف المكِّي والمدني؛ لأنَّه يمتاز بشموليته فهو جامع لسُوَر القرآن لا يندُّ عنها شيء، كما أنَّ الضَّابط فيه هو الهجرة، فما كان

---

1 ـ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص36.

2 ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ج6، ص187، رقم الحديث: 5002.

قبل الهجرة وبالتَّحديد قبل وصول النَّبي ﷺ إلى المدينة فهو مكِّي، وما كان بعد وصوله المدينة إلى مماته ﷺ فهو مدني [1].

وبناء على هذا التَّعريف المختار فإنَّ:

. قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، نزلت بعد الهجرة في يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع فهي: مدنية.

. سورة النصر: نزلت بمكة بعد الهجرة فهي مدنية.

. ما نزل خارج المدينة بعد الهجرة: كصدر سورة الأنفال التي نزلت ببدر، وبعضًا من سورة التوبة التي نزلت بتبوك، فهما مدنيَّتان.

الرَّأي الثَّاني: أنَّ المكِّي ما نزل بمكَّة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة.

هذا التَّعريف تقيَّد بالتَّسمية المكانية، والتزم بِظاهِرها، وإن كان شرّاحه أدخلوا في مكَّة ضواحيها، فاعتبروا من القرآن المكي ما نزل بمنى وعرفات والحديبية، ومن القرآن المدني ما نزل بأحد وسلع [2].

لكن هذا الضَّابط ليس دقيقًا؛ لأنَّ بعض القرآن لم ينزل لا بمكة ولا بالمدينة.

الرَّأي الثالث: نظروا فيه إلى الخطاب، فما كان الخطاب فيه بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكِّي؛ لأنَّ الكفر كان غالبًا على أهل مكَّة فخوطبوا بيا أيُّها النَّاس، وما كان الخطاب فيه بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهو مدنيٌّ؛ لأنَّ الإيمان كان غالبًا على أهل المدينة [3].

ونردُّ أيضًا بأنَّ هذا الضَّابط ليس دقيقًا؛ لأنَّ بعض السُّور ليس فيها أيٌّ من الخطابين كالسُّور القصار، ومنها ما فيه الخطابين معا كسورتي البقرة والحجِّ.

فوائد معرفة المكي والمدني:

من فوائد معرفة المكي والمدني ما يأتي:

1. الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، فإنَّ معرفة مكان النُّزول يعين على فهم المراد من الآية، ومعرفة مدلولاتها وما يرد فيها من إشارات أحيانًا.

---

[1] ـ ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص188.

[2] ـ ينظر: عتر نور الدين، علوم القرآن الكريم، مرجع سابق، ص56.

[3] ـ ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ج1، ص193.

2. تيسير فهم الموضوعات القرآنية بحيث تدرس المواضيع القرآنية على حسب الترتيب الزمني بحيث تجمع النجوم المتفرقة في الموضوع الواحد الأول فالأول، وهذه الطريقة المثلى في مجال التفسير الموضوعي.
3. معرفة تاريخ التَّشريع وتدرُّجه في التَّكليف، ويترتَّب على هذا الإيمان بأنَّ هذا التَّدرج لا يكون إلَّا من عليم خبير.
4. الاستفادة من أسلوب القرآن في الدَّعوة إلى الله تعالى فهو أسلوب يشتدُّ ويلين، ويفصِّل ويجمل، ويَعِد ويتوعَّد، ويُرغِّب ويُرهِّب، ويوجِز ويُطنب حسب أحوال المخاطبين، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم.
5. الاستفادة منه في معرفة سيرة الرَّسول ﷺ وذلك بمتابعة أحواله في مكَّة ومواقفه في الدَّعوة، ثم أحواله في المدينة، وذلك بغية الاقتداء بهذا المنهج النَّبوي الحكيم في الدَّعوة.
6. بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم واهتمامهم به حتَّى إنَّهم لم يكتفوا بحفظ النَّصِّ القرآني؛ بل تتبعوا مكان نزوله، ومعرفة ما نزل قبل الهجرة، وما نزل بعدها، وما نزل باللَّيل وما نزل بالنَّهار، وما نزل في الصَّيف وما نزل في الشِّتاء، وما نزل في الحضر وما نزل في السَّفر...[1].

كيفية معرفة المكِّي والمدني:

ذكروا لمعرفة المكِّي والمدني طريقتين هما:

المنهج السَّماعي: وعمدته النَّقل، فالمراد به ما نقل عن الصَّحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التَّابعين الذين سمعوا ذلك من الصَّحابة، يقول الباقلاني في الانتصار: إِنَّمَا يَرْجِعُ فِي مَعْرِفَةِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ إِلَى حِفْظِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَلَمْ يَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ قَوْلٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ فَرَائِضِ الْأُمَّةِ [2].

المنهج القياسي: وهو ضوابط وخصائص كلٍّ منهما، فالضوابط علامات ظاهرة قد تكون لفظية أو معنوية، إذا وجدت في سورة قيل إنها مكية أو مدنية، وهذه الضوابط عرفت بالاستقراء، واستدلَّ بها العلماء على المكِّي والمدني، وكان ذلك موضع عناية المتقدِّمين، ومن جملة الضَّوابط ما يأتي:

---

[1] ـ ينظر: الرومي، دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص:133 ـ 134.

[2] ـ ينظر: الباقلاني أبو بكر، الإنتصار للقرآن، حققه: محمد عصام القضاة، ط1، دار الفتح، عمّان، 2001م، ج1، ص247.

أ- كلُّ سورة مبدوءة بقَسَم فهي مكية.

ب- كلُّ سورة فيها كلَّا فهي مكية.

ج- كلُّ سورة مفتتحة بالأحرف المقطَّعة فهي مكِّية باستثناء البقرة وآل عمران.

د- كلُّ سورة فيها نداء بـ "يا أيُّها النَّبي" أو " يا أيُّها الرَّسول" فهي مدنية.

هـ- كلُّ سورة فيها سجدة تلاوة فهي مكِّية.

و- كلُّ سورة فيها ذكر للجهاد والمنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت.

ز- كلُّ سورة فيها "يأيُّها النَّاس" وليس فيها "يأيها الذين آمنوا" فهي مكِّية إلاَّ سورة الحجِّ فإنَّها مكِّية مع أنَّ في آخرها "يأيها الذين آمنوا".

ح- كلُّ سورة مفتتحة بـ "الحمد" فهي مكِّية وهنَّ خمس سور.

ط- كلُّ سورة فيها قصَّة آدم ما عدا البقرة فهي مكِّية.

ومن مميِّزات السُّور المكِّية قصرها، وقصر آياتها في الغالب مع قوَّة جَرْس الألفاظ ووقعها، وإيجاز العبارة مع الوفاء بالمعنى وبلاغته، وتركيزها على قضايا الإيمان والأخلاق، والحديث عن الأمم الماضية، بخلاف السُّور المدنية فإنَّ أغلبها طويلة وكذا آياتها، كما تتناول المواضيع التَّشريعية كتشريع المعاملات والعبادات والعقوبات والجهاد... [1].

تحديد السُّور المكِّية والمدنية:

السُّور المدنية: اختلف العلماء في عددها، وقد نقل السيوطي عن ابن الحصار أنَّ المدني عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عَشْرة سورة وما عدا ذلك فهو مكِّي [2].

والسُّور المدنية هنَّ: البقرة، آل عمران، النِّساء، المائدة، الأنفال، التَّوبة، النُّور، الأحزاب، محمَّد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التَّحريم، النصر.

أمَّا المختلف فيها اثنا عشر سورة هي: الفاتحة، الرَّعد، الرَّحمن، الصَّفُّ، التَّغابن، المطفِّفين، القدر، البيِّنة، الزَّلزلة، الإخلاص، الفلق، النَّاس، والأرجح في هذه السُّور أنَّها مكِّية باستثناء الصَّفِّ فالأرجح أنَّها مدنيَّة.

---

[1] - الرومي، دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 131 - 132، وينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 62 - 64.

[2] - ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص44.

أما السور المكية فهنَّ ما عدا السُّور المذكورة وعددهنَّ اثنتان وثمانون سورة.

أقسام القرآن الموضوعية، وعلاقة كلِّ قسم بزمن النُّزول:

يُقسَّم القرآن من حيث موضوعاته إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي كالآتي:

1. **آيات العقيدة:** يغلب على القسم المكِّي من القرآن الحديث عن الإيمان بشكل تفصيلي، كالإيمان بالله، وباليوم الآخر، وبالبعث، والحساب، والجنَّة والنَّار، والملائكة والجنِّ، والكتب السَّماوية، والرُّسل... كما يهدف هذا القسم إلى تصحيح تصوُّرات الإنسان تجاه خالقه ببيان أحقِّيته وحده في العبادة ونبذ عبادة ما سواه، وتصحيح نظرة الإنسان إلى الكون، والحياة، ومعرفة مصدر الإنسان ودوره في الحياة، وما سيؤول إليه بعد مماته.

وكلُّ هذا وغيره مذكور في القرآن بأساليب متنوِّعة، فهناك الحديث المباشر عنها، وهناك أسلوب القصص، وهناك ضرب الأمثال للفت الأنظار، وهناك أسلوب القَسَم...

ولا عجب أن تكون الفترة المكِّية مرتكزة أساسًا على ترسيخ الإيمان، وتصحيح المفاهيم؛ لأنَّها بمثابة أساسٍ للبناء، وقاعدة للارتقاء، فمتى صَلُح الاعتقاد صلح العمل.

2. **آيات التَّشريع:** إنَّ السِّمة الغالبة في القسم المدني هو الحديث عن التَّشريع وينقسم إلى أربعة أقسام:

أ- الآيات المتحدِّثة عن المبادئ العامَّة للتَّشريع: وضع القرآن الكريم القواعد العامَّة للتَّشريع، وذكرها في قسمه المكِّي والمدني على السَّواء، فمنها إقامة مبدإ العدل والإحسان، ومبدإ رفع الحرج في الدِّين، وأن لا إكراه في الدِّين، والمشقة تجلب التَّيسير، وأنَّ الإنسان هو المسؤول عن تصرُّفاته وحده...

ب- الآيات المتحدِّثة عن تشريع العبادات: وهي التي تربط العلاقة بين العبد وربِّه، كتشريع الصَّلاة، والزَّكاة، والصِّيام، والحجِّ، والأيمان والنُّذور...، ويغلب على هذا القسم نزوله بالمدينة، كما أنَّ غالبيَّته نزل مُجملا وتُرك تفصيله وتبيانه للنَّبي ﷺ، فالصلاة والحج أُجملا ذكرهما في القرآن؛ والنَّبي

ﷺ بيَّنهما عن طريق أفعاله وأقواله، فقال في شأن الصَّلاة: "صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي"[1]، وعن شأن مناسك الحجِّ قال: "خذوا عنِّي مناسككم" [2].

ج- الآيات المتحدثة عن تشريع المعاملات: وقد جاءت هذه الآيات لتنظِّم شؤون المسلمين فيما بينهم كالمعاملات المالية من بيع ودين وميراث، والمعاملات الزَّوجية كالخطبة والمهر والزَّواج والطَّلاق والنَّفقة والعدَّة والرَّضاع، وأحكام الأسرة من آداب الاستئذان وغضِّ البصر، وذكر المحرَّمات من النِّساء، وأحكام الجهاد من صلح ودماء وأسارى وغنائم وفيء، ونظام الحكم من الشُّورى والعدل وأداء الأمانة، وأحكام المسلمين مع غيرهم سواء في السِّلم أو الحرب كالمنافقين وأهل الكتاب من يهود نصارى... وقد جاء هذا في القسم المدني مفصَّلا وموسَّعا لأنَّه عماد الأمن والاستقرار.

د- الآيات المتحدِّثة عن تشريع العقوبات: وهي القوانين التي شُرعت من أجل حفظ أمن الأفراد والمجتمعات وجميعها نزل في القسم المدني كتشريع القصاص في القتل، وإقامة الحدود في حكم السَّرقة، والحرابة، وشرب الخمر، والزِّنا، والقذف، وتفويض الحاكم في عقوبة التعزير كإتيان الذُّكران والسِّحاق.

آيات الأخلاق: القرآن الكريم في شقَّيه المكِّي والمدني كان يحثُّ على التَّحلِّي بأخلاق حميدة كالصِّدق، والعفَّة، والحياء، والأمانة، والصَّبر، والعفو، وكظم الغيظ وغير ذلك، وفي المقابل نجده يحثنا على التخلّي عن الأخلاق الذَّميمة كالكذب، والغشِّ، والبهتان، وتطفيف الكيل والميزان، والغيبة، والنميمة، واليمين الفاجرة...

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب الآذان، باب الآذان للمسافر، ج1، ص128، رقم الحديث: 631.

[2] ـ البيهقي، السنن الكبرى، مصدر سابق، جماع أبواب دخول مكة، بَابُ الْإِيضَاعِ فِي وَادِي مُحَسِّرٍ، ج5، ص204، رقم الحديث: 9524.

والرسم الآتي يوضح أقسام القرآن الموضوعية مع بيان مكان نزول كلِّ قسم

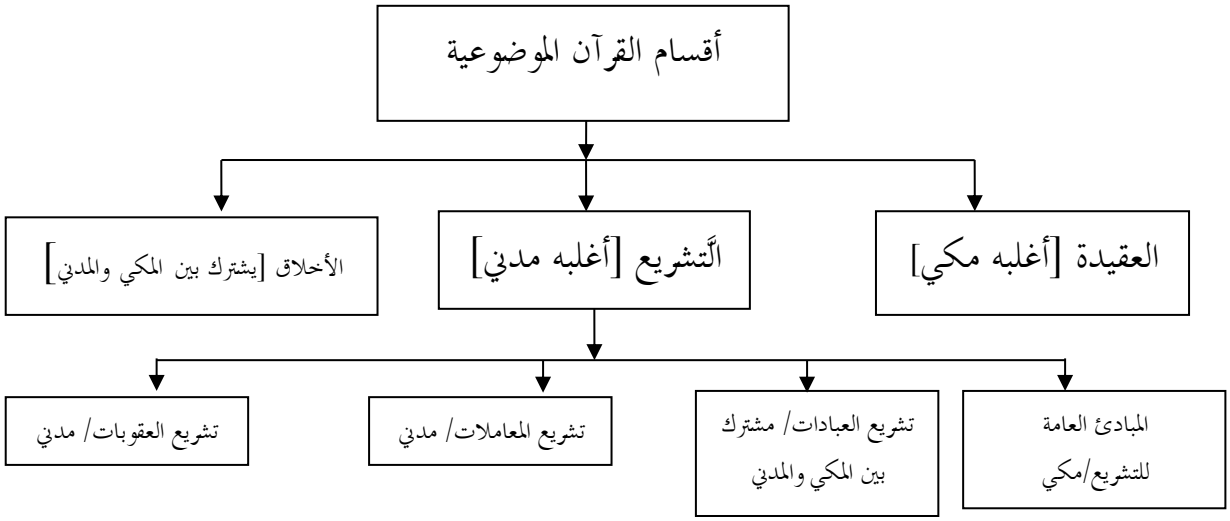

النشاط التقويمي:

1. . استخرج الضوابط القياسية لمعرفة المكي والمدني من كتب علوم القرآن والتي لم تذكر في المحاضرة.
2. . اذكر الآيات والسور التي نزلت على النبي ﷺ في طريق الهجرة، وهل نعدُّها مكية أم مدنية مع التعليل؟
3. . هل يمكن أن تحوي السور المدنية على آيات مكية؟ اذكر الخلاف القائم بين العلماء في هذه المسألة.

* * *

المحاضرة الثامنة: إعجاز القرآن

كثير من الناس لا يؤمن إلا بما يقع تحت حواسهم من مشاهدة وسماع ولمس، فتجدهم ينكرون كل ما غاب عن حواسهم من مغيَّبات، فاحتاج هؤلاء الناس من أجل تصديق الرسل الكرام إلى بيانٍ وحجَّة؛ لأنَّ هؤلاء الرسل خاطبوا أقوامهم بما لا يقع تحت حواسهم من مغيَّبات كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة، فكان من رحمة الله ﷻ على النَّاس أن أيَّد رسله بمعجزات تصدِّقهم في دعواهم للأمور الغيبية لغرض إقامة الحجة على الناس وقطع الشك باليقين.

فما من نبيٍّ يرسله الله ﷻ إلى أمَّته إلَّا ويؤيِّده بمعجزة خارقة تكون برهانًا قاطعًا، وحجَّة ساطعة على صدق ما يبلِّغه عن ربِّه ﷻ، وغالبًا ما تكون معجزة ذلك النَّبي من جنس ما يشتهر به

قومه، ليتحدَّاهم وليعجزهم حتَّى يتيقَّنوا أنَّ مصدر ما يقوله لهم ذلك النَّبي، ومصدر تلك المعجزة هما قطعًا من عند الله ﷻ.

تعريف المعجزة:

المعجزة لغة: أصل مادَّة معجزة من العجز، يقول الأصفهاني: "عَجُزُ الإنسانِ: مُؤَخَّرُهُ، وبه شُبِّهَ مُؤَخَّرُ غيرِهِ، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 20]، والعَجْزُ أصلُهُ التَّأَخُّرُ عن الشَّيء، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مؤخِّره، وصار في التّعارف اسمًا للقصور عن فعل الشَّيء، وهو ضدّ القدرة، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ [المائدة: 31]، وأَعْجَزْتُ فلاناً وعَجَّزْتُهُ وعَاجَزْتُهُ: جعلته عَاجِزاً" [1].

المعجزة اصطلاحا هي: أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرون بالتَّحدِّي، سالِمٌ من المعارضة يُجريه الله على يد نبيٍّ من أنبيائه صدقا لدعواه [2].

فمعجزات الأنبياء ليس المقصود منها تعجيز الخلق؛ ولكن للازمه وهو دلالتها على أنَّهم صادقون فيما يبلِّغون عن الله.

فمن خلال التَّعريف لا بدَّ لتحقُّق المعجزة من شروط هي:

1. . أن تكون من الأمور الخارقة للعادة ليست ممَّا يألفه النَّاس ويعتادونه، كتحوُّل عصى موسى عليه السلام إلى ثعبان يتلقَّف كلَّ ما يأْفِكُه السَّحرة.

2. . أن يكون الأمر الخارق للعادة من الله، وليس من فعل البشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: 50]، وقال الله على لسان الأنبياء: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: 11].

3. . سلامتها من المعارضة بالإتيان بمثلها: إذ لو استطاع البشر الإتيان بمثلها لما صلُحت أن تكون علامةً على صدق صاحبها، وحتى تكون علامة على صدق دعوى النَّبيِّ لا بدَّ ألاَّ يقدر البشر كلَّهم؛ بل والجِنُّ معهم على الإتيان بمثلها؛ لأنَّها من قدرة الله وحده، كما قال تعالى عن القرآن ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾ [الطور: 34].

---

[1] ـ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص547.

[2] ـ ينظر: الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج4، ص3.

4. . ألاَّ تقع المعجزة على خلاف قول النَّبي، فإذا جاءت على خلاف قوله لم تصلح دليلًا على دعواه، ولا دليل على صدقه لمخالفتها لمقتضى كلامه كما حدث لأدعياء النُّبوة.

5. . أن تقترن بالتَّحدي عند وقوعها: وذلك لأمرين أوَّلهما: إثبات عجز المخاطبين عن الإتيان بمثلها أو من بعدهم، وثانيهما: إقامة الحجَّة عليهم عند عجزهم [1].

مرادفات مصطلح "المعجزة" في القرآن الكريم:

لم يرد في القرآن الكريم ولا في السُّنَّة النَّبوية مصطلح المعجزة، وإنَّما ظهر هذا المصطلح في أواخر القرن الثَّاني الهجري وبداية الثَّالث، لذا نجد أنَّ القرآن الكريم قد استعمل بدل المعجزة ما يأتي[2]:

1. . الآية: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: 109].

2. . البيِّنة: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: 73].

3. . البرهان: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32].

الفرق بين معجزة النبي ﷺ ومعجزة غيره من الأنبياء عليهم السَّلام:

1) . معجزات الأنبياء آنية مؤقَّتة تفنى بوفاة ذلك النبيَّ، بينما معجزة الرَّسول ﷺ خالدة.

2) . معجزات الأنبياء حسِّية بينما معجزة الرَّسول ﷺ عقلية.

3) . معجزات الأنبياء مستقلَّة عن رسالتهم، فعصا موسى عليه السلام مستقلَّة عن التَّوراة، ونفس الشيء عند عيسى عليه السلام؛ بينما الرَّسول ﷺ تجتمع الرِّسالة والمعجزة في القرآن الكريم.

مراحل التَّحدي بالقرآن:

تحدَّى القرآن الكريم النَّاس عامَّة، والعرب بشكلٍ أخصٍّ في أكثر من آية على مراحل متعدِّدة منها:

---

[1] ـ ينظر: فهد الرومي، محاضرات في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ص: 260 ـ 261.

[2] ـ ينظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط3، دار القلم، دمشق، 2005م، ص17.

أوَّلا: تحدَّاهم بأن يأتوا بمثل القرآن من غير تعيين: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: 34].

ثانيا: لَمَّا عجزوا عن الإتيان بمثله أرخى لهم القرآن العِنان فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: 13].

ثالثا: فلمَّا أظْهروا عجزهم وعدم استطاعتهم، خفَّف عنهم القرآن أكثر فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: 38].

رابعا: وبلغ التحدِّي أشدَّه في سورة البقرة، حيث طلب من جميع النَّاس أن يأتوا بسورة ولو تُشبه إلى حدٍّ بعيد أقلَّ سورة في القرآن وهي سورة الكوثر في النّظم والتّأليف والإحكام، وفي المعاني والدّلالات والأحكام علمًا أنَّها لا تتضمَّن تشريعًا، ولا قصصًا، ولا تاريخًا، علاوة على ذلك أن يستعينوا بشهدائهم، ومع كلِّ هذه التَّسهيلات فقد سجَّل القرآن عجزهم ذلك على وجه التَّأكيد، والتَّأبيد، والتَّيئيس، مع الإنذار والتَّهديد والوعيد: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: 23 – 24]، ثم سجَّل الله على الخلق جميعًا عجزهم عن معارضته ليكون ذلك التَّحدي باقيًا ما بقي القرآن، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88].

بعض وجوه إعجاز القرآن الكريم:

يحمل القرآن الكريم الكثير من وجوه الإعجاز، فما من أمَّة تشتهر بعلم من العلوم إلاَّ والقرآن يتحدَّاها ويُعجزها من جنس ما تشتهر به، فالأمم التي اشتهرت بالبيان والبلاغة والشعر والنثر أعجزها نظم القرآن، والأمم التي اشتهرت بذكر الأخبار وتتبع الحوادث التاريخية والتنبؤ بالأخبار المستقبلية أعجزها القرآن بالغيبيات الماضية والمستقبلية، والأمم التي تتغنى بالقوانين والنظم أعجزها القرآن بتشريعاته الربانية، والأمم التي نالت الريادة في المجال العلمي أعجزها القرآن بالحقائق العلمية الواردة فيه قبل أربعة عشر قرنا، والأمم التي تتميَّز بالإدارة والتنظيم قد أعجزها القرآن في المجال الإداري سواء في إدارة المال أو المعرفة أو الوقت أو الأزمات...، وهلمَّ جرًّا.

فألوان الإعجاز القرآني يجدها بعض القارئين في روعة أسلوبه وإحكام نَظمه، ويجدها بعضهم في يُسره وسهولة حفظه، ويجدها بعضهم في صحَّة معانيه وصدق أخباره، ويجدها بعضهم في أحكامه ونُظُمه، والخلاصة أنَّنا نجد إعجاز القرآن فيما ذكر وفي غيره.

فالقرآن معجزٌ في ألفاظه وأسلوبه، وفي بيانه ونظمه، وفي تشريعاته وأحكامه الرَّامية لتكوين مجتمع إنسانيٍّ مثاليٍّ واقعيٍّ، كما أنَّه معجز فيما احتواه من علومٍ ومعارف لم يجمعها كتاب قبله ولا بعده، وتحقَّقت باكتشافات العلماء لبعضها في العصور المتأخِّرة كحقائق ثابتة، وفيما يأتي بيان أهمِّ وجوه الإعجاز القرآني:

أولا: الإعجاز البياني: إنَّ أعظم وجوه الإعجاز في القرآن الكريم الإعجاز البياني؛ لأنَّه ينتظم القرآن الكريم كلَّه، سُوَره وآياته على اختلاف طولها وقِصَرها، بخلاف الوجوه الأخرى من وجوه الإعجاز فليس الأمر فيها كذلك، فمثلا الإنباء بالغيب الماضي والمستقبلي ليس موجودا في كلِّ آية من آيات القرآن، ونفس الشَّيء يقال في الوجوه الأخرى كالإعجاز العلمي والتَّشريعي.

فالإعجاز البياني يعد أهم الوجوه وأعمها؛ بل أتمها لأنه عام في القرآن كله لا تخلو منه سورة على قصرها؛ بل هو في كل آية من آياته.

فالقرآن الذي أعجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سَنَن كلامهم ألفاظًا وحروفًا تركيبًا وأسلوبًا، فقد جاء في اتِّساق حروفه وطلاوة عبارته وحلاوة أسلوبه وجرس آياته، وانتقاء كلماته، وترتيبها في الجمل، والجمل في آيات، والآيات في السُّور، ومجموع السُّوَر تشكِّل القرآن الكريم في وحدة موضوعية متماسكة لا تختلف ولا تضطرب.

كما أن القرآن يراعي مقتضيات الحال في ألوان البيان في الجمل الاسمية والفعلية، وفي النَّفي والإثبات، وفي الذِّكر والحذف، وفي التَّعريف والتَّنكير، وفي التَّقديم والتَّأخير، وفي الحقيقة والمجاز، وفي الإطناب والإيجاز، وفي العموم والخصوص، وفي الإطلاق والتَّقييد، وفي النَّص والفحوى...

هكذا في كلِّ ما سبق نجد القرآن هو القمَّة التي تعجز أمامها القدرة اللُّغوية لدى البشر أجمعين، وعلماء اللُّغة العربية هم أدرى النَّاس بذلك وهم يعلمون أنَّ قريشًا الذين بلغوا شأوًا بعيدًا في البيان واللُّغة وكانوا يتنافسون فيها في النَّوادي والأسواق كعكاظ، وذي المجنَّة قد بهرهم أسلوب القرآن وعجزوا عن الإتيان بمثله، فنحن أعْجَز عنهم من باب أولى لبعدنا عن اللِّسان العربي.

ثانيا: الإعجاز الغيبي:

والقرآن الكريم تضمَّن الحديث فيه عن الإنباء بالغيب على أربعة أنواع:

أوّلها: الإخبار عن الغيب المطلق، كالخبر عن الله ﷻ، وأسمائه، وصفاته، والملائكة، والجنّ واليوم الآخر، وصفة الجنّة والنّار.

وقد أتى القرآن في هذا الأمر بما لا يمكن أن يدركه البشر من تلقاء أنفسهم، إذ لا سبيل لمعرفته من جهة العقول، وإنّما طريقه السّمع، كقوله تعالى عن خلقة الملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [فاطر: 1].

ثانيها: الإخبار عن الأمور السّابقة، كالخبر عن بدء الخلق، وعن الأمم السّالفة.

وقد قصّ علينا القرآن من ذلك عجبًا، وأتى من الأنباء بما لم يملك المنصفون من أهل الكتاب والعلم إلّا تصديقه، كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝١١٤﴾ [الأنعام: 114].

فمثال الإخبار عن بدء الخلق قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ۖ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: 9 – 11].

ومثال الإخبار عن الأمور الغيبية الماضية والتي تحمل تفاصيل وأرقام دقيقة ما كان للنَّبي ﷺ أن يعلمها لولا أنَّ الوحي الإلهي أطلعه عليها، لذلك كثيرا ما نجد هذه العبارات القرآنية ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران: 44]، وقوله: بعد تمام قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۝١٠٢﴾ [يوسف: 102]، وكذا في أثناء قصة موسى عليه السلام نجد أيضا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٤٥ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: 45 – 46]، ومثال هذا البند في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥﴾ [الكهف: 25].

ثالثها: الإخبار عن الأمور الغيبية المستقبلية: كالإخبار عن الشّيء قبل وقوعه في عهد النّبيّ ﷺ، أو عمّا سيكون بعد ذلك، ومثاله قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم: 1 – 4]، وكلمة "بضع" تعني من 3 إلى 10 سنوات كقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]، وقد تحقَّق وعد الله بأن نصر الله الرُّوم على الفرس بعد سبع سنين ووافق ذلك يوم بدر [1].

رابعها: الإخبار عمّا تكنّه النّفوس وتخفيه الضّمائر، ممّا لا يمكن أن يعلمه إلّا الله، ولا يصل إلى علم النّبيّ ﷺ إلّا بوحي الله ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧﴾ [الجن: 26 – 27].

ومثاله ما نقرأه في سورة التّوبة من ذكر أسرار المنافقين، حتّى خاف النّاس أن ينزل القرآن بأسمائهم يُظهر حقائق ما في نفوسهم.

ثالثا: الإعجاز التشريعي:

ويكمن فيما أودع الله في كتابه من القوانين والأنظمة التي تشهد في استقامتها وعدلها وصلاحها لكلّ زمان أنّها من عند الله، وأن لا طاقة للخلق أن يوجِدوا لها نظيرًا مهما بلغت العقول.

ذلك أنّ التّشريع مبنيّ على تحقيق مصالح العباد في الدّارين، ولا يحيط بتلك المصالح أحد من خلق الله؛ لقصور علمهم؛ لكنّ الله سبحانه هو الخالق وهو أعلم بشؤون عباده، وهو الذي يشرِّع الأصلح لهم قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: 14].

فلذا جاء تشريعه موصوفًا بالحسن المطلق، وبالحقّ المطلق، كما قال ﷻ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: 50]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ۝١٠٥﴾ [النساء: 105].

وقد اشتمل القرآن الكريم على النُّظم والتَّشريعات التي يحتاجها البشر في حياتهم المعاشية، ولم يدع جانبًا من جوانب الحياة إلَّا كانت له نظرته الخاصَّة وتشريعه المستقلُّ بحيث ينتج من مجموع أنظمته تشريع متكامل لجميع مناحي الحياة، وهي تعدُّ من قبيل الإعجاز التَّشريعي سواء أخذنا في ذلك:

---

[1] ـ ينظر: الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، ج4، ص ص: 249 ـ 250.

أحكام العقوبات المختلفة من قصاص وحدود كالقصاص في النَّفس والأعضاء والجوارح، وفي الحدود كحدِّ الحرابة والسَّرقة والقذف والزنا، أو أحكام المعاملات المالية وما يحيط بها كالبيوع والرِّبا والدَّين والشَّهادة والعقود والتِّجارة والاقتصاد...، أو أحكام المعاملات الزَّوجية وما يكتنفها من خِطبة ونفقة وزواج وطلاق وحيض ونفاس وعدة...، أو أحكام الأسرة وما يتعلَّق بها من آداب وأحكام كالاستئذان وغض البصر وستر العورات والمحارم من النِّساء، وما يتعلق بثبوت النسب وتحريم التبني وأحكام اليتامى، وحقوق الأطفال من نفقة ورعاية ورضاع...، أو أحكام تنظيم المجتمع من حيث حقوق الرَّاعي والرَّعية، والالتزام بالشُّورى والعدل والأمانة والطاعة...، أو أحكام الجهاد من دفاع وغنيمة وفيء وأسارى...، أو أحكام المعاملات مع المسلمين وغيرهم داخل الدَّول الإسلامية أو خارجها.

رابعا: الإعجاز العلمي:

وهو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التَّجريبي الحديث، مع استحالة إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرَّسول ﷺ ممَّا يُظهر صدقه فيما أخبر به عن ربه ﷻ وأنَّه عين الحقِّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: 53].

ومعلوم أنَّ القرآن الكريم كتاب هداية كما قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: 1]، إلاَّ أنَّه يحمل في ثناياه إشارات علميَّة مختلفة لغرض التَّيقن أنَّ هذا الكتاب هو قطعًا من عند الله ويستحيل أن يكون من عند محمد ﷺ لأنَّه يحتاج إلى علوم ومعارف وآلات متطوِّرة جدًّا حتَّى يدرك حقيقة من هذه الحقائق العلمية، ومن ضمنها ما يأتي:

ففي الفضاء: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: 47]، فقد تحدَّثت الآية عن حقيقة توسُّع الكون وتمدُّده.

في الجوِّ: قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: 125]، فالآية تبيِّن أنَّ الإنسان كلَّما صعَد إلى الأعلى في الجوِّ فإنَّه يحسُّ بضيق التَّنفس النَّاتج عن انخفاض نسبة الأكسجين.

في البحر: قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: 40]، فالآية تشير إلى حقيقة علمية وهي أنَّ للبحر طبقات بعضها فوق بعض، وعند طبقة معيَّنة في أعماقه إذا أخرج الإنسان يده فإنَّه لا يمكن أن يراها مع أنَّ الشَّمس في كبد السَّماء.

في الرِّياح: قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: 22]، فالآية تشير إلى أنَّ الرِّياح تقوم بعمليَّة نقل حبَّات الطَّلع للتَّلقيح.

في جسم الإنسان: قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: 4]، فقد ثبت علميًّا أنَّ بنان الإنسان وهو بصمته لا يمكن أن يتشابه مع أيِّ بصمة إنسان في العالمين ولو كانا توأمين.

في عالم الحشرات: يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: 73]، فقد توصَّل العلم الحديث إلى أنَّ الحمض النَّووي للذُّباب هو أبسط حمض نووي، ومع ذلك فإنَّهم لن يستطيعوا أن يخلقوه، فكيف بغيرها من عظام المخلوقات!!؟

من ضوابط تفسير الآيات المتحدثة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

كثير هم الذين يبالغون في التَّدليل على ظواهر علمية من خلال القرآن الكريم فيتكلَّفون في تفسير الآية، ويحمِّلونها ما لا تحتمل، ومن هنا وضع العلماء شروطًا تضبط هذه المسالة منها:

1) . موافقة اللُّغة العربية موافقة تامَّة؛ لأنَّ القرآن نزل بلسان عربي مبين، فلا بد أن يتطابق المعنى المفسَّر المعنى اللُّغوي.

2) . حينما يشير القرآن إلى تلك الإشارات؛ فإنَّه يتحدث عنها بأسلوب لا يتعارض إطلاقًا مع أيِّ حقيقةٍ علميةٍ ثابتة، وهذا شيء بديهي؛ لأنَّ القرآن قول الله وهو كتاب الله المقروء، والكون فعل الله وهو كتاب الله المنظور، ويستحيل أن يتعارض قول الله مع فعل الله، وفي حين تعارضها فإنَّنا نحكم عليها بأنَّها نظرية وليست حقيقة علميَّة.

3) . يجب علينا أن ننظر إلى ما في القرآن على أنَّه حقائق فما وافق من الاكتشافات الحديثة على وجه اليقين قبلناه، فمعنى هذا أنَّنا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم، بل إنَّ العلم هو الذي يجب أن يثبت بالقرآن، ويلتمس له الدَّليل من آيات القرآن؛ ذلك أنَّ القرآن أصدق من أيِّ علمٍ من

علومِ الدُّنيا، ومن أيِّ علم ظهر في هذا العالم؛ لأنَّ مكتشف هذا العلم أو مخترعه بشر، وقائل القرآن هو الله ﷻ.

4) . الحقائق العلمية الثَّابتة التي لا تقبل النَّقد ولا التَّعديل هي المعتبرة في مجال التفسير العلمي للقرآن، أمَّا النَّظريات التي لا تزال تحت التَّجربة، والخاضعة للفحص، والتَّمحيص، فلا مكَانَ لَهَا في هذا المجال فالآيات القرآنيةُ حقائق ثابتة فلا تفَّسر إلا بحقائق ثابتة.

5) . يجب مراعاة معاني المفردات على النَّحو الذي كانت مستعملة فيه أثناء نزول القرآن، والحذر مما طرأ عليها من تطوُّر بعد العهد النَّبوي.

6) . التَّحذير من أن يتعرَّض التَّفسير العلمي لأخبار وشؤون المعجزات.

7) . يجب الجمع بين كلِّ الآيات القرآنية التي تتحدَّث عن موضوع واحد من هذه الموضوعات الكونية على طريقة التَّفسير الموضوعي؛ لأنَّ كثيرًا من الآيات لا يمكن فهمُها إلا بالإحاطة بها وتقصِّيها من جميع القرآن الكريم.

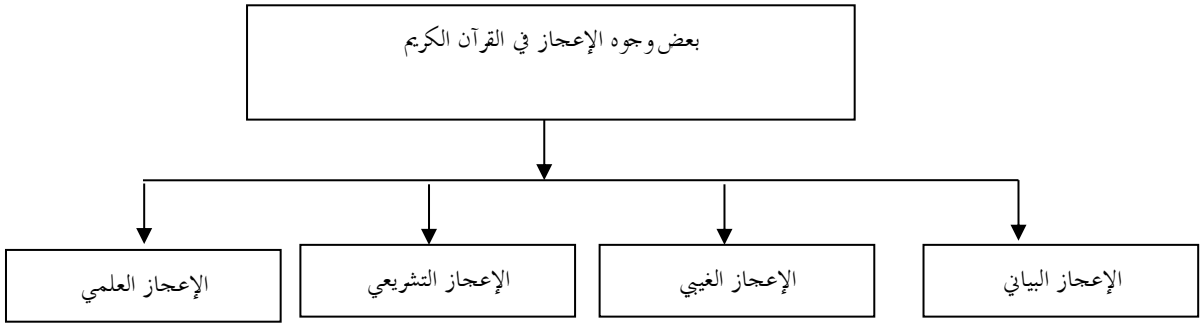

النشاط التقويمي:

1. . ما الفرق بين الإعجاز البياني وغيره من أوجه الإعجاز؟

2. . تعرَّض العلماء أثناء تناولهم لمبحث الإعجاز البياني إلى مسائل منها: الصِّرفة، الترادف، التكرار. اشرحها، وبين آراء العلماء فيها.

3. . اذكر أوجه الإعجاز الأخرى التي لم ترد في المحاضرة مع التمثيل لها من القرآن.

* * *

المحاضرة التاسعة: الأحرف السَّبعة والقراءات

أولا: الأحرف السَّبعة.

وردت أحاديث كثيرة عن جمع من الصحابة في بيان نزول القرآن على سبعة أحرف، فاختلف العلماء في معنى هذه الأحرف اختلافا كثيرا، وتعددت فيه آراؤهم وأقوالهم تعددا كبيرا، حتى قال ابن حبان: "اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولًا"، ومدار هذا الاختلاف ناشئ عن مدلول الأحاديث الصَّحيحة الثابتة في هذا الموضوع كحديث: "إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ " حتى قال السيوطي عن هذا الحديث: "اختُلِفَ على معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولًا" [1].

وقبل أن نذكر آراء العلماء وأقوالهم في المراد بالأحرف السبعة لا بد أن نقدِّم للموضوع بتعريفات مهمَّة وهي كالآتي:

أولا: مفهوم الأحرف السبعة:

1. . تعريف الحرف: للحرف مدلولات كثيرة ويأتي بمعنى: الطرف والحد أو الجانب والناحية، وحرف الجبل، والنهر والصف: جانبه، وسمي الواحد من حروف الهجاء "حرفًا"؛ لأنه جزء من كملة وطرفها.

ويطلق "الحرف" على الكلمة الواحدة، وعلى الخطبة أو القصيدة بكاملها.

ويستعمل في الدلالة على وجه من وجوه القراءة المتعددة.

وكذلك يطلق على الحرف الوجه كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ ﴾ [الحج: ١١]، أي: وجه واحد وهو أن يعبده على السراء لا الضراء أو على شك أو على غير طمأنينة على أمره أي: لا يدخل في الدين متمكنا [2].

كما تسمى قراءة كل قارئ حرفًا، يقال: حرف أبي بن كعب، وحرف ابن مسعود؛ أي: قراءته.

---

[1] ـ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص164.

[2] ـ الفيروز آبادي محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م، ص 1033.

إذن فلفظ الحرف يطلق في اللغة على عدة معان منها: طرف الشيء وحدُّه، ومنه حرف الجبل أي قمته، ويطلق أيضا على حرف التهجي، وعلى الوجه وهو المناسب لموضوعنا يقول الزرقاني: "وأنسب المعاني بالمقام هنا في إطلاقات لفظ الحرف أنه: الوجه"[1].

2. المراد بـ "السبعة": كما اختلف العلماء في معنى الحرف فكذلك اختلفوا في معنى السبعة إلى رأيين:

الرأي الأول: ذهب بعض العلماء إلى أن "السبعة" ليست على حقيقتها؛ وإنما المراد بها الكثرة في الآحاد، كما يدل "السبعين" على الكثرة في العشرات، و"السبعمائة" على الكثرة في المئات.

الرأي الثاني: ذهب الجمهور إلى أن "السبعة" على حقيقتها، وهو العدد الآحادي بين الستة والثمانية، وهو الراجح لورود كلمة "السبعة" في جميع روايات الحديث، فهو من المتواتر اللفظي[2].

ثانيا: أهم الأحاديث الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف، وفوائدها:

1. قد وردت في شأن الأحرف السبعة أحاديث كثيرة بطرق عدَّة وأسانيد شتَّى، وَرُويت عن عددٍ كبير من الصحابة رضوان الله عليهم، وأهمُّ هذه الأحاديث وأصحُّها هي:

. عن عُمَرَ بْن الخَطَّابِ أنَّه قالَ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ، لَمْ يُقْرِئْنِيهَا ﷺ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاَةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: كَذَبْتَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْسِلْهُ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ» فَقَرَأَ عَلَيْهِ القِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ»، ثُمَّ قَالَ: «اقْرَأْ يَا عُمَرُ» فَقَرَأْتُ القِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»[3].

---

[1] ـ الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ص 112.

[2] ـ السندي عبد القيوم عبد الغفور، صفحات في علوم القراءات، المكتبة الأمدادية، 1415هـ، ص:100.

[3] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، بَابُ أُنْزِلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، ج6، ص184، رقم الحديث: 4992.

. عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[1].

. عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَرَآ، فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي، ضَرَبَ فِي صَدْرِي، فَفِضْتُ عَرَقًا وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَرَقًا، فَقَالَ لِي: " يَا أُبَيُّ أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ» [2].

. عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ»، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا»[3].

. عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: لَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيِّينَ: مِنْهُمُ العَجُوزُ، وَالشَّيْخُ الكَبِيرُ، وَالغُلاَمُ، وَالجَارِيَةُ، وَالرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا قَطُّ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ» [4].

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، بَابُ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، ج6، ص184، رقم الحديث: 4991.

[2] ـ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ وَبَيَانِ مَعْنَاهُ، ج1، ص561، رقم الحديث: 820.

[3] ـ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ وَبَيَانِ مَعْنَاهُ، ج1، ص561، رقم الحديث:821.

[4] ـ الترمذي، سنن الترمذي، مصدر سابق، أبواب القراءات، بَابُ مَا جَاءَ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، ج5، ص44، رقم الحديث: 2944.

2. فوائد الأحرف السبعة من خلال الأحاديث:

نستخلص من هذه الأحاديث جملة من النقاط التي تندرج في أهمية الأحرف السبعة وهي:

. أن هذه الأحاديث وغيرها تفيد بأن الرسول ﷺ صرَّح بنزول القرآن على سبعة أحرف.

. اختلاف قراءة الصَّحابة فيما بينهم للنَّصِّ القرآني الواحد، وإقرار النبي ﷺ لقراءاتهم وعزوِ كلِّ ذلك إلى نزول القرآن على سبعة أحرف.

. من أهمِّ الحكم على نزول القرآن على سبعة أحرف هو: التيسير والتخفيف والتوسيع على الأمة فيختاروا منها ما تيسر منها لئلا يشقَّ عليهم ذلك.

. بالرغم من نزول القرآن على سبعة أحرف إلا أنه لا تعارض بينها.

إذن فالغاية من نزول القرآن على سبعة أحرف تكمن في الآتي:

1. . التهوين والتيسير على الأمة والتوسعة عليها في قراءتها للقرآن الكريم كما تدل على ذلك الأحاديث النبوية السالفة الذكر وغيرها.

2. . إثراء التفسير والأحكام الشرعية بتعدد الأحرف، لأن تعدد الأحرف يترتب عليه تعدد المعاني وتزاحمها على سبيل الإثراء والتأييد، لا على سبيل التعارض أو التناقض.

3. . إظهار كمال الإعجاز بغاية الإيجاز لأن كل حرف مع الآخر بمنزلة الآية مع الآية في دلالتها وفيما اشتملت عليه.

ثالثا: بيان المراد من الأحرف السبعة:

قبل أن نورد اختلاف العلماء في مسألة الأحرف السبعة وتقديم الرأي الراجح في المسألة يجب علينا أن نصل إلى نقطة أساسية وهي:

ضرورة أن يشمل مفهوم الأحرف السبعة كل أنواع الاختلاف في القراءة التي قرأها القراء الثقات، وتواترت عن الرسول ﷺ، وأيُّ رأي لا يشملها فهو ناقص لا يوفِّي المعنى المقصود لهذه الأحرف.

وذهب العلماء إلى أن المصاحف العثمانية اشتملت على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة، واختار القاضي أبو بكر الباقلاني هذا الرأي وقال: "الصحيح أن هذه الأحرف السبعة ظهرت واستفاضت عن رسول الله ﷺ وضبطها عنه الأئمة، وأثبتها عثمان والصحابة في المصحف، وأخبروا

بصحتها، وإنما حذفوا منها ما لم يثبت متواترًا، وأن هذه الأحرف تختلف معانيها تارة وألفاظها أخرى وليست متضادة ولا منافية"[1].

وفيما يأتي بيان آراء العلماء في معنى الأحرف السبعة وهي:

1. الرأي القائل: بأنها سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد: أي أنَّ القرآن أنزل على سبع لغات، وأمر الرسول ﷺ بقراءته على سبعة ألسن [2].

ذهب سفيان بن عيينة وابن جرير وابن وهب والقرطبي ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات في كلمة واحدة تختلف فيها الألفاظ مع اتفاق المعاني وتقاربها مثل: (هلم، أقبل، تعال، إلي، قصدي، نحوي، قربي) فإنَّ هذه سبعة ألفاظ مختلفة يعبر بها عن معنى واحد وهو طلب الإقبال، والمقصود أن منتهى ما يصل إليه عدد الألفاظ المعبرة عن معنى واحد هو سبعة وليس المقصود أنَّ كلَّ معنى في القرآن عبر عنه بسبعة ألفاظ من سبع لغات.

وأصحاب هذا الرأي أيَّدوا كلامهم بأنَّ التيسير المنصوص عليه في الأحاديث متوفِّر في هذا الرَّأي ثم هم يرون أنَّ الباقي من هذه اللُّغات السِّتِّ أو الحروف الستة هو حرف قريش دون غيرهم[3].

2. الرأي القائل: بأنَّ الأحرف السبعة هي سبع لغات من اللغات العرب متفرِّقة في القرآن كله: بمعنى أنَّ القرآن لا يخرج عن سبع لغات ـ لهجاتٍ ـ هي أفصح لغات العرب، فعلى هذا الرأي يكون بعض القرآن نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة كنانة، وبعضه بلغة أسد، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة تميم، وبعضه بلغة قيس عيلان، وبعضه بلغة أهل اليمن، واختار هذا الرأي أبو عبيد القاسم بن سلام [4]، وابن عطية وآخرون ودليلهم عدم معرفة بعض الصَّحابة القرشيِّين لبعض ألفاظ القرآن إلاَّ من بعض العرب كما وقع لابن عباس في كلمة فاطر حيث روى عنه أنه قال: لم أكن أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدأتها. وأجيب عن ذلك بأنَّ عدم معرفة ابن عباس لمعنى هذه الكلمة لا يدلُّ على أنَّ اللَّفظة غير قرشية لجواز أن يكون قد غاب معناها فقط عن ابن عباس وليس بلازم أن يحيط المرء بكل معاني لغته أو

---

[1] ـ نقلا عن الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص224.

[2] ـ ينظر: الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج1، ص15.

[3] ـ ينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مرجع سابق، ص ص: 108 ـ 111.

[4] ـ ينظر: الجزري أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، حققه: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي المكتبة العلمية، بيروت، 1979م، ج1، ص938.

بألفاظها، بل قيل: اللغة لا يحيط بها إلا معصوم. ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّوسعة ورفع الحرج والمشقة المقصود من الأحرف السَّبعة لا يتفق وهذا الرأي؛ لأنه يترتَّب عليه أن يكون القرآن الكريم أبعاضا، وأنَّ كلَّ بعض بلغة، ويلزم من ذلك أنَّ كلَّ شخص لا يقرأ من القرآن إلا ما نزل بلغته [1].

3. الرأي القائل: بأن الأحرف السبعة هي سبعة أوجه، هي الأمر والنهي، والوعد، والوعيد، والجدل، والقصص، والأمثال، أو هي: الأمر، والنهي، والحلال، والحرام، والمحكم، والمتشابه والأمثال. وردُّ هذا الوجه بأنَّ التَّوسعة كما هو مفهوم من الأحاديث والرِّوايات الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف هي خاصَّة بالألفاظ وليس بالمعاني، وذلك بأن تقرأ الكلمة على وجهين أو ثلاثة، ولا يمكن أن تكون التوسعة في تحريم حلال ولا في تحليل حرام، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة [2].
4. الرأي القائل: بأنَّ الأحرف السبعة هي القراءات السبع، وهذا قولٌ واهٍ سببه اتِّحاد العدد بين الأحرف السبعة والقراءات التي اعتمدها (ابن مجاهد ت: 324 هـ) وجمعها وهي قراءات سبع لقراء سبعة. وممن ينسب إليهم هذا القول (الخليل بن أحمد الفراهيدي ت 170 هـ) وتوجيه موقف الخليل بن أحمد هذا لا يتناسب والتَّعليل السَّابق الذي يُرجع السبب في هذا اللبس الذي يخلط بين القراءات السبعة والأحرف السبعة، إلى جمع ابن مجاهد (ت324 هـ) للقراءات السبع، ومن ثم يقول أحد الباحثين وهو الدكتور محمد الحبش: وأحب هنا أن أوضِّح رأي العلامة الجليل الخليل بن أحمد الفراهيدي، فهو بلا ريب إمام العربية وحجة النُّحاة ولاشك أن انفراده بالرأي هنا لم ينتج من قلة إحاطة أو تدبر، ومثله لا يقول الرأي بلا استبصار، وانفراد مثله برأي لا يلزم منه وصف الرأي بالشذوذ أو الوهن. وغير غائب عن البال أنَّ الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي توفي عام 170 هـ لم يدرك عصر تسبيع القراءات، حيث لم تشتهر عبارة القراءات السبع إلا أيام ابن مجاهد، وهو الذي توفي عام 324 هـ، ولم يكن الخليل بن أحمد يَعْني بالطَّبع هذه القراءات السبع التي تظاهر العلماء على اعتمادها وإقرارها بدءاً من القرن الرابع الهجري، ولكنَّه كان يريد أن ثمَّة سبع قراءات قرأ بها النَّبي ﷺ وتلقَّاها عنه أصحابه، ومن بعدهم أئمَّة السَّلف، وهي تنتمي إلى أمَّهات قواعدية

[1] ـ ينظر: محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، ط2، دار المنار، 1999م، ص74.
[2] ـ ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص159.

لم يتيسر من يجمعها بعد. أي في زمن الخليل وأنَّها لدى جمعها وضبطها ترتد إلى سبعة مناهج، وفق الحديث: "إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف" [1].

5. الرأي القائل: بأنها سبعة أوجه من التغاير لا تخرج القراءات عنها مهما كثرت وتنوَّعت في الكلمة الواحدة، وقد ذهب جمع غفير من العلماء من أبرزهم (أبو الفضل الرازي ت: 454هـ)، وابن قتيبة،وابن الجزري، والباقلاني وغيرهم إلى أنَّ الأحرف السبعة هي سبعة أوجه لا يخرج عنها الاختلاف في القراءات وهي:

. اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث.

. اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر.

. اختلاف وجوه الإعراب.

. اختلاف بالنقص والزيادة.

. الاختلاف بالتقديم والتأخير.

. الاختلاف بالإبدال.

. اختلاف اللهجات كالفتح والإمالة والتفخيم والترقيق والإظهار والإدغام.

وقد لقي هذا الرأي شهرة ورواجا عند كثير من العلماء وقد تعصَّب له الشيخ عبد العظيم الزرقاني في مناهل العرفان ورجَّحه على غيره وساق الأمثلة لكل وجه منها وقرر أنه الرَّأي الذي تؤيِّده الأحاديث الواردة في هذا المقام، وأنَّه الرَّأي المعتمد على الاستقراء التام دون غيره، وردَّ على كل اعتراض وجه إليه وإن بدا عليه التكلف في بعض هذه الردود [2].

واعترض على هذا الرأي بأنَّ الرُّخصة في التيسير على الأمة بناء على هذا الرأي غير واضحة ولا ظاهرة، فأين الرخصة في قراءة الفعل المبنى للمعلوم مبنيا للمجهول أو العكس، وأين هي أيضا في إبدال حركة بأخرى، أو حرف بآخر، أو في تقديم وتأخير، فإن القراءة على وجه من هذه الوجوه المذكورة لا يوجب مشقة في شيء، يحتاج معها إلى أن يسأل النبي ﷺ ربَّه المعافاة لعلَّة أنَّ الأمَّة لا تطيق

[1] ـ ينظر: حبش محمد، القراءة المتواترة وأثرها في اللغة العربية والأحكام الشرعية والرسم القرآني، رسالة ماجستير، إشراف: أحمد علي الإمام، سنة: 1996م، ص20.

[2] ـ ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، مرجع سابق، ص ص: 155 ـ 167.

القراءة على وجه واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من هذه الوجوه المذكورة، كما جاء ذلك في الأحاديث النبوية التي تحدثت عن قضية نزول القرآن على سبعة أحرف.

النشاط التقويمي:

1. . تتفاوت الأحرف السبعة في درجة تخالفها وتباعدها عن بعضها، فسِّر ذلك.
2. . لخِّص موضوع الأحرف السبعة من مقدمة تفسير الطبري.

ثانيا: القراءات.

يعدُّ علم القراءات من أجلِّ العلوم لارتباطه بكلمات القرآن الكريم، فتنوُّع قراءة الكلمة ينتج عنه أحيانًا اختلاف في المعنى، ومن هنا يجب على من يقدم على تفسير كتاب الله أن يكون ملمًّا بالقراءات ويحيط بها علمًا، يقول القسطلاني: "فإنَّ القرآن ينبوع العلوم ومنشؤها، ومعدن المعارف ومبدؤها، ومبنى قواعد الشَّرع وأساسه، وأصل كلّ علم ورأسه، والاستشراف على معانيه لا يتحقَّق إلا بفهم رصفه ومبانيه، ولا يطمع في حقائقها التي لا منتهى لغرائبها ودقائقها إلاَّ بعد العلم بوجوه قراءاته، واختلاف رواياته؛ ومن ثَمَّ صار علم القراءات من أَجَلِّ العلوم النَّافعات، وإذا كان كل علم يَشرفُ بشرف متعلِّقه، فلا جرم خُصَّ أهله، الذين هم أهل الله وخاصَّته بأنَّهم المصطفَون من بريَّته، والمجتبون من خليقته، وناهيك بهذا الشَّرف الباذخ، والمجد الرَّاسخ، مع ما لهم من الفضائل اللاَّحقة، والمنازل السَّابقة، فمناقبهم أبدًا تُتلى، ومحاسنهم على طول الأمد تُجلى.."[1].

تعريف القراءات:

لغة: القراءات جمع قراءة، والقراءة مصدر الفعل: قَرَأَ بمعنى تلا، وبمعنى جمع [2].

اصطلاحا: "القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوًّا لناقله"[3].

"والقراءات هي اختلاف الوحي في الحروف وكيفيَّتها، غير أنَّها تعتمد كلِّية على التَّلقِّي والمشافهة؛ لأنَّ هذا العلم الإسلامي الخالص لا يحكم إلا بالسَّماع والمشافهة" [4].

---

[1] ـ القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق: الشيخ عامر عثمان ود/ عبد الصبور شاهين، دار إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1392هـ، ج1، ص6.

2 ـ ينظر تفصيل التعريف في المحاضرة الأولى.

3 ـ المقدسي أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، إبراز المعاني من حرز الأماني، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: 772.

4 ـ المارغني إبراهيم بن أحمد بن سليمان، دليل الحيران على مورد الظمآن، دار الحديث، القاهرة، ص: 3.

موضوعها: كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النُّطق بها، وكيفية أدائها.

استمدادها: النُّقول الصحيحة والمتواترة عن علماء القراءات إلى رسول الله ﷺ.

حكمها: فرض كفاية تعلُّمًا وتعليمًا.

ثمرتها وفائدتها: العصمة من الخطأ في النُّطق بالكلمات القرآنية، وصيانتها عن التَّحريف والتَّغيير، والعلم بما يَقرأ به كلُّ إمام من الأئمَّة القرَّاء، والتَّمييز بين ما يُقرأ به، وما لا يُقرأ به.

مكانتها: علم القراءات من أجلِّ العلوم قدرًا، وأعلاها منزلةً، لاتِّصاله بأشرف الكتب السَّماوية وأفضلها على الإطلاق، وهو القرآن الكريم، وشرف العلم من شرف المعلوم[1].

مصدريتها: القراءات المتواترة سنة متبعة لا مجال فيها للاجتهاد والقياس فهي مستمدَّة من الوحي الإلهي.

أنواع القراءات من حيث الصِّحة:

أنواع القراءات من حيث السَّند ستَّة:

1. المتواتر: وهو ما رواه جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم، ويمثِّل له العلماء بالقراءات السَّبع.
2. المشهور: ما كان دون المتواتر، وهو ما صحّ سنده، بأن رواه العدل الضَّابط عن مثله وهكذا، ووافق العربية، ووافق أحد المصاحف العثمانية، سواء كان من الأئمة السَّبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين.

وهذان النَّوعان يُقرأ بهما مع وجوب اعتقاد قرآنيتهما، ولا يجوز إنكار شيء منهما.

3. ما صحَّ سنده، وخالف الرَّسم أو العربية، ولم يشتهر الاشتهار المذكور، ومثاله: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128]، قُرئ (من أنفَسكم) بفتح الفاء، وهذا النَّوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده.
4. الشّاذّ: وهو ما لم يصح سنده، مثاله قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92]، ورد بطريق غير صحيح أنَّه قُرئ (فاليوم نُنَحِّيك) بالحاء المهملة بدل الجيم.

[1] ـ ينظر: فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ص: 314 ـ 316.

5. الموضوع: أي المكذوب، وهو ما ينسب إلى قائله من غير أصل، مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، افتري على أحد الأئمة أنَّه قرأ: (إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ)، وكيف يخشى الخالق المخلوق؟ ولماذا؟

6. المدْرج: وهو ما زيد من القراءات على وجه التَّفسير، مثاله قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: 89]، قرأ ابن مسعود (ثلاثة أيام متتابعات)، فكلمة متتابعات ليست قرآنا؛ بل زيدت في القراءة على سبيل التَّفسير ورأي المذهب [1].

ومن العلماء من يقسِّمها إلى قسمين رئيسين: المتواتر ويشمل أيضًا المشهور، والشَّاذُّ ويشمل بقيَّة الأنواع.

الفرق بين القراءات المتواترة والشَّاذَّة:

أ- إنَّ القراءات المتواترة صحيحة النِّسبة إلى رسول الله ﷺ بنقل الجمع الكثير عن الجمع الكثير حتى يبلغ إلى رسول الله ﷺ، بينما القراءات الشاذة لا تصحّ نسبتها إلى رسول الله ﷺ.

ب- يجب اعتقاد القراءات المتواترة بأنَّها قرآن ويكفر جاحدها جملة، بينما الشَّاذَّة يحرم الاعتقاد بأنَّها قرآن؛ بل قد يكفر معتقدها إذا علم بطلان سندها.

ج- هذه القراءات هي التي يقرأ بها القرآن الكريم ويتعبَّد بها في الصَّلاة وخارج الصَّلاة، وهي معجزة، بخلاف الشَّاذَّة فهي لا يقرأ بها في الصَّلاة أو خارج الصَّلاة، ولا يتعبَّد الله تعالى بتلاوتها.

شروط القراءة الصحيحة:

حتَّى تكون القراءة صحيحة اشترط العلماء لها شروطًا ثلاثة يجب أن تكون مجتمعة فمتى اختلَّ ركن منها، أو أكثر أُطْلِقَ عليها أنَّها ضعيفة، أو شاذَّة، أو باطلة، وهذه الشُّروط هي:

1) التواتر: وهو الشَّرط الأساس، لأنَّ القرآن الكريم كلُّه منقول بالتَّواتر فهو من هذه الجهة قطعي الثُّبوت.

2) موافقة اللُّغة العربية ولو بوجه: فلا بدَّ أن توافق القراءةُ اللُّغةَ العربية، ولا يلزم أن توافق الأفشى في اللُّغة؛ بل يكفي أن توافق أيَّ وجه من أوجه اللُّغة؛ لأنَّ القرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين.

[1] ـ مصطفى ديب البغا، الواضح في علوم القرآن، ط2، دار الكلم الطيب، دمشق، 1998م، ص ص: 118 ـ 119.

3) موافقة الرَّسم العثماني ولو احتمالا: والمراد بالموافقة الاحتمالية ما يكون من نحو هذا كقراءة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4]، فإنَّ لفظة "مَلِك" كُتبت في جميع المصاحف بحذف الألف منها، فتقرأ "مَلِكِ" وهي بهذا توافق الرَّسم تحقيقًا، وتقرأ "مالك" لتوافق الرَّسم احتمالًا وهكذا.

والحقُّ أنَّ الشَّرط المعتبر في القراءة القرآنية هو التَّواتر فحسب، لأنَّه لم تثبت قراءة بالتَّواتر، ثم خالفت مصحفًا أو لغة عربية، ولذا كان من الأنسب الاقتصار على شرط التَّواتر، وأن يعدَّ الشرطان الآخران شرطين بالتَّبعيَّة لا بالأصالة، فمثلا: لو قرأ أحد "مَلَكَ يوم الدين" فهي توافق اللُّغة والمصحف؛ لكنَّها لم تُنقل بالتواتر، فالأصل هو التَّواتر.

فوائد الاختلاف في القراءات الصَّحيحة:

ولاختلاف القراءات الصحيحة فوائد منها:

1. الدَّلالة على صيانة كتاب الله وحفظه من التَّبديل والتَّحريف حيث يتنافس كلُّ مصر من الأمصار على ضبط قراءة معيَّنة معتنيًا بها، ومحافظًا عليها.
2. التَّخفيف عن الأمَّة وتسهيل القراءة عليها.
3. إعجاز القرآن في إيجازه، حيث تدلُّ كلُّ قراءة على حكم شرعي دون تكرار اللَّفظ كقراءة: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: 6]، بالنَّصب والخفض في "وأرجلِكم" ففي قراءة النَّصب بيان لحكم غسل الرِّجل، حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6]، وقراءة الجرِّ بيانٌ لحكم المسح على الخفَّين عند وجود ما يقتضيه، حيث يكون العطف على معمول فعل المسح ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ فنستفيد الحكمين من غير تطويل، وهذا من معاني الإعجاز في الإيجاز بالقرآن.
4. بيان ما يُحتمل أن يكون مُجملًا في قراءة أخرى كقراءة: "يطهرن" في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾ [البقرة: 222]، قُرِئ بالتَّشديد والتَّخفيف، فقراءة التَّشديد مبيِّنة لمعنى قراءة التَّخفيف عند الجمهور، فالحائض لا يحلُّ وطؤُها من زوجها حتَّى ينقطع منها دم الحيض وتتطهَّر بالماء [1].

كيف نتعامل مع القراءات؟

[1] ـ ينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص: 181.

عند قراءتنا لكتب التَّفاسير نجد أنَّ بعض الكلمات القرآنية لها أكثر من قراءة، وقد يتغيَّر المعنى بناء عليها، كما نجد أنَّ بعض المفسرين يتعاملون مع القراءات المتواترة بشكل غير منهجي فيرجِّحون بعضها على بعض، وأحيانًا يردُّون بعضها وهكذا، ومن هنا فلا بدَّ لنا من منهجيَّة صحيحة لكيفيَّة التَّعامل مع القراءات وهي:

1. . نميِّز ما بين المتواتر وغيره، فما كان متواترًا فنحكم عليه قرآنًا، وما كان غير ذلك فلا نعتدُّ به قرآنا.
2. . إذا كانت الكلمة الواحدة تواتر فيها أكثر من قراءة فعندها نؤمن بأنَّ جميعها وحي من عند الله ﷻ ولا نردُّ منها شيئًا.
3. . الأصحُّ أن لا نرجِّح بين شيئين من المتواتر من حيث الثُّبوت؛ لأنَّ مصدرهما واحد، ولكن يمكن القول بأفصحيَّة بعضها على بعض، باعتبار أنَّ بعض القراءات نزلت لتوافق ما عليه بعض اللَّهجات العربية.
4. . يمكننا توجيه القراءات وذلك ببيان كيفية مجيئها على هذا الوجه دون الآخر من حيث اللُّغة والإعراب والسِّياق، ومن هنا فالتَّوجيه هو المطلوب لا التَّرجيح، وعلى هذا الأساس نجد أنَّ العلماء أثناء تعرُّضهم للقراءات يبحثون عن معناها أو إعرابها وهكذا، وكلُّ ذلك يكشف لنا روعة الإعجاز في القرآن.
5. . كما يجوز الجمع بين أكثر من قراءة في النص الواحد أثناء التلاوة، وخاصة لغايات التعليم، لكن بشرط أن يقرأ أولا بقراءة معينة ثم ينتهي من الآية أو السورة القصيرة ليبدأ في قراءة جديدة.

نبذة عن القراء:

يلخِّص الجدول الآتي القرَّاء العشرة المتَّصفون بالضَّبط، والأمانة، وطول ملازمتهم للقراءة، وشهرتهم في الآفاق، واتِّفاق العلماء على الأخذ منهم وهم:

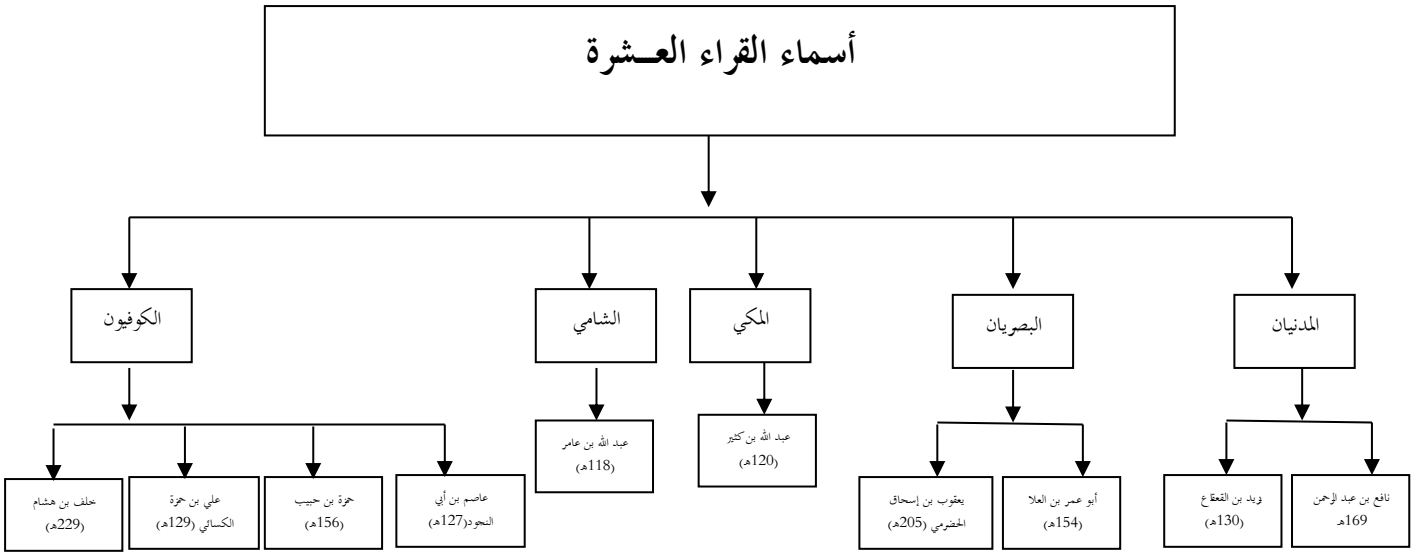

ومما يلاحظ على سِيَر القرَّاء ما يأتي:

أ- أنَّهم من أمصار الإسلام المشهورة في ذلك الوقت، وهذا يؤكِّد أنَّ عدد المصاحف التي أرسلها عثمان ﷺ، وأرسل معها قرَّاء إلى الأمصار قد أنجبت فيما بعد قرَّاءً مشهورين.

ب- أنَّ بعضهم من التَّابعين.

ج- أنَّهم من الموالي باستثناء ابن عامر وأبي عمرو، وفيهم يصدق قول النَّبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[1]، فهم ممَّن رفعهم الله بالقرآن وأبقى ذكرهم في العالمين رغم أنَّهم من الموالي، ولذلك لا اعتبار في الدِّين باللَّون أو العِرْق، فكلُّ من أراد أن يخدم هذا الدِّين من عرب أو عجم فمرحبًا به؛ لأنَّ ميزان التَّفاضل بين النَّاس هو التقوى لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: 13].

أنَّهم كانوا على أعلى درجة من الضَّبط، والإتقان، والعلم بالقراءات، والتَّفرُّغ لها، حتَّى اشتهروا في زمانهم وَفَاقوا أقرانهم، وشهد لهم أهل عصرهم بذلك.

النشاط التقويمي:

[1] ـ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فَضْلِ مَنْ يَقُومُ بِالْقُرْآنِ، ج1، ص559، رقم الحديث: 817.

1. . هل الرسول ﷺ نطق بجميع القراءات، فرويت مسندة إليه؟
2. . اذكر أقوال العلماء في بيان الفرق بين القراءات القرآنية والأحرف السبعة.
3. . كيف نزلت القراءات القرآنية؟ وهل كان جبريل عليه السلام يكرّر على مسمع النبي ﷺ نفس الآية بقراءات مختلفة أم أنها نزلت بنوع آخر من أنواع الوحي؟

* * *

المصادر والمراجع:

. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

. أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، حققه: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط1، مؤسسة الرسالة، 2001م.

. الباقلاني أبو بكر، الانتصار للقرآن، حققه: محمد عصام القضاة، ط1، دار الفتح، عمّان، 2001م.

. البخاري محمد بن اسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، حققه: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار: طوق النجاة، 1422هـ.

. البيهقي، السنن الكبرى، حققه: محمد عبد القادر عطا، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، 1995م.

. ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1980م.

. الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حققه أحمد محمد شاكر وآخرون، ط2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1975م.

. الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حققه: بشار عواد معروف، الناشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 م.

. حبش محمد، القراءة المتواترة وأثرها في اللغة العربية والأحكام الشرعية والرسم القرآني، رسالة ماجستير، إشراف: أحمد علي الإمام، سنة: 1996م.

. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، حققه: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.

. الخازن علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ.

. الجزري أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، حققه: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1979م.
. ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379م.
. ابن أبي داود عبد بن سليمان، المصاحف، حققه: محمد بن عبده، ط1، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، مصر، 2002م.
. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، دمشق، 1412 هـ.
. الرازي محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، 1995م.
. الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
. الزركشي محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957م.
. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
. الشوكاني محمد بن علي، فتح القدير، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1414هـ.
. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط24، 2000م.
. الطبراني سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ط1، تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف وعناية: د/ سعد بن عبد الله الحميد و د/ خالد بن عبد الرحمن الجريسي، 2006 م.
. الطبراني سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ط2، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار ابن تيمية، القاهرة.
. القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق: الشيخ عامر عثمان ود/ عبد الصبور شاهين، دار إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1392هـ.
. المجالي محمد خازر، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، ط5، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، 2010م.
. محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، ط2، دار المنار، 1999م.

. المقدسي أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، إبراز المعاني من حرز الأماني، دار الكتب العلمية، بيروت.

. النووي يحي بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1392هـ.

. الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، 1388هـ.

. السندي عبد القيوم عبد الغفور، صفحات في علوم القراءات، المكتبة الأمدادية، 1415هـ.

. عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، دار البيان العربي، القاهرة.

. عماد علي عبد السميع، التيسير في أصول واتجاهات التفسير، دار الإيمان، الإسكندرية، 2006م.

. فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، دار الفرقان، الأردن، 1997م.

. فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، دار الفرقان، عمّان، 2000م.

. فضل حسن عباس، محاضرات في علوم القرآن، دار النفائس، الأردن، 2007م.

. فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط12، 2003م.

. الفيروزآبادي محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م.

. ابن قدامة المقدسي عبد الله بن أحمد، روضة الناظر وجنة المناظر، ط2، مؤسسة الريّان، بيروت، 2002م.

. ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، حققه: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، لبنان.

. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ.

. محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، ط2، دار المنار، 1999م.

. محمد بن حبان بن البُستي، صحيح ابن حبان، حققه شعيب الأرناؤوط، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م.

. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، 2005م.

. محمد فاروق النبهان، المدخل إلى علوم القرآن الكريم، ط1، دار عالم القرآن، حلب، 2005م.

. مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

. مصطفى ديب البغا، الواضح في علوم القرآن، ط2، دار الكلم الطيب، دمشق، 1998م.

. مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط3، دار القلم، دمشق، 2005م.
. مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ط4، دار القلم، سوريا، 2005م.
. ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414 هـ.
. مناع بن خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف، 2000م.
. نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، ط1، مطبعة الصباح، دمشق، 1993م.